

دَاعِيَ السَّمَاءِ

بلال بن رباح «مَوْذَنُ الرَّسُولِ»

عباس محمود العقاد



منشأة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع




دَاعِيَ السَّمَاءِ

بِرَّالِ بْنِ رَبَاعٍ
مُؤَذِّنُ الرِّسُولِ

عباس محمد هادي العفاد



مكتبة
للطباعة والنشر والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلمة تصدير

بين الحريين العالميين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها . وعملت فيها السياسة غاية عملها . وأقحمها الدعاة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

وقد كانت للإسلام كلمة في إنصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العنصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي ﷺ رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول . فكان أثراً عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين . فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من سلسلة العبقریات والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية القائمة .

ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء .

عباس محمود العقاد

سنة ١٩٤٥

مسألة العنصر

مسألة العنصر - أو الجنس - مسألة اجتماعية كثيرة الورد على ألسنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية . ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رموس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره . ولا كان مدعاة للتزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الطمعية ، لم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصدق ذلك في القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . . » (آية ١٣) فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدته ومدار الفخر فيه . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامنيازه على غيره ، ويزيده

معاً في عدد لتصحح والمناهة أن نتاج به فرصة العنة والاستعلاء مرة
من برمن فإن كانت العلة قائمة حاصره فهي آية الصحر وحجة
ساحه ون كانت عابره دائره فهي عدد علامة على عرقه نصه
وحدثه عبره . وأنه حق من ذلك العبر بصر والمناهة وب خدمته
الخطوط والمصادفات في حاصر أمره

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعصرها واعتداد منشأها
وبيئتها وبلادها . والذي قال .

بلادى وإن جارت على عريرة وأعلى وإن صنوا على كرام
قد جمع هذه الخفية من جمع وحوهها وهو يدرى أولاً يدرى
ليس من للارم أن يكون البلاد طيب لبلاد ولا أن يكون الآن كرم
الناس ليصححهم رحل لدى ينتمى إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعتهم
عليهم . فإنه يعظمهم ويحبهم فراً من المهابة التي نصسه إذ تقصرو
عن شأو العاصر الأخرى في التعظيم والتشجيل فهو فخرهم إذ
عظموا مساهمة منه في فحارهم . وفخرهم ب هادوا دفعاً للهوى عنه إذا
عترف هوأهم . ولا حساب للبحث أو للرأى في الحديث إلا بعد
حساب العاطفة والشعور

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الإنسان الكامل ثم تتلاحق لشعوب
بعده إلى أن يأتي أبناء اليونان في المرتبة السادسة

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المهدب ومن عده بربره
لا يدركون مكانه من الفهم والحصارة

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الإنسان النبيل الكريم ومن عده
أعاجم لا يفقهون ما يقاب ولا يدينون بدين بروءه والأحساب

وكذلك كان أبناء فارس واهم والصين . بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر إلى بطايرها وإن تلاقى جميعا في أصل ترب من الأحساب والأساب .

وبقيت هذه الشبهة بين أهم الحصار في العصر الحديث فاعترها الأوروبيون على أبناء القارت لأخرى ، ولكم لشوا فيما بينهم بما حرك كل شعب منهم حارة بالعادات والأخلاق والآثروان تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة فليس أشد تفاخراً بين الأوروبيين من الطليد والإنسان والمرسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية ويعقبتهم إلى المسيحية الرومسية وبما صرهم إلى مريح متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا برحى المصلحة المنفعة أن يجمعوا فحرهم كله إلى بحر واحد يتقارب فيه لأوروبيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المحتاه بين القارات . وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يشر بها الأوروبيون من عداهم من الشعوب الإسيابية ، وسموا تلك الرسالة « عبء الرحل الأبيض » وأمانة الرحل الأبيض ، أو تفعته أمام الله هدية خنقه الدين لم يبلغوا مبلغهم من العلم ولارتقاء

وصدق العام الإنجليز حوليات هكسلي حين قال إن هؤلاء الدعاة مسوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح فقد سبقهم « أشعيا » من أنبياء إسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين « اسمعي لي أيتها الخرائر واصعوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعاني ، من أحشاء أمي ذكر سمي وجعل في كيسي حاد في ظل يده خنأني وجعلني سبياً مرياً في كمانته أحماني وقال لي أنت عبي إسرائيل الذي به

أَتَمَحَّد. أما أنا فقلت عناً تعت ، باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي . لكن
حقى عهد الرب وعملى عند إلهى .
« والآن قال الرب جابلى من البطش عبداً له لإرجاع يعقوب إليه
فيسم إليه إسرائيل فأتَمَحَّد فى عيبى الرب وإلهى بصبر قوتى . فقال .
قليلٌ أن تكون لى عهد الإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظى إسرائيل ،
فقد جعلتك بوراً للأنم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض . هكذا قال
الرب قادى إسرائيل . . . »

فرساة الرجل الأبيض التى تمحض عنها القرن التاسع عشر كره لم
تذهب بأصحابها إلى أعد من هذا المدى الذى سقهم إليه هو إسرائيل
قبل ميلاد السيد المسيح سبعة قرون .

° ° °

وطلت المفاحر العنصرية كرها من قيل هذه العادات الاجتماعية التى
لا يرجع فيها إلى قياس مطلق ولا موارنة علمية . فكادت أشبه شىء
بمفاحرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وخيراتهم
ويونهم التى يسكنونها ومدتهم التى يشأون فيها وكل شىء يتصل بهم
وتعقد فيه بمقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاحر الأحناس من هذا
القيل أن كل جنس هو أفضل الأحناس لغيره سب . وليس هذا من
القياس المطلق ولا الموارنة العلمية فى شىء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمى فى القرن التاسع عشر فأدخل لفوارق
بين الشعوب فى مرصوعاته الكثيرة وحمل لها علماً خاصاً أو دأباً خاصاً
من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأحناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود انفوارق الصحيحة بين خمسة من

الأحاس التي يسمي إليها شعوب شرق كفة . وهي الحس القفاسي أو
الأس . والحس الرعي أو الأسود . والحس المعول أو الأصغر .
والحس الأسمر أو أهل غايا . والحس الأحمر أو سكان القارة
الأمريكية الأصلاء .

وختصر بعضهم هذه التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأحاس
الصفراء والسمراء والخمراء فروعاً من أصل واحد . وهو اختصار له سد
معقول

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع
الأحيال . أي بالفروق التي يسمونها فرقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق
الاجتماعية التي تكسب بالقوة والمحاكاة

وساؤل العالم المعوي لأمان ماكس مولر دراسة الأحاس من الناحية
التي تعبه وهي ناحية المقابلة بين اللغات . فاستخدم كلمة لغات الآرية
وأحيائها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليم جونس في
آخر القرن الثامن عشر . وقرر أن لغات اللغة الهندية الأوروبية نشأت
من مهد واحد في راسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « آريانا »
وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة ميل واحد من الأحاس البشرية . وكلا
يقوين اليوم خطأ عند علماء هذه المسألة فيما ثبته جوبيان هكسل من
كلامه عن الحس في انقاره الأوربية .

وحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الحس الآري ستخرج من حيز
تمكيد المعنى إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من
الخص في تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك في شبحه حيث
قال « لقد رويت مرة بعد مرة أنني قد ذكرت الآرية فست أعني

الدم ولا العظم ولا الشعر ولا اللحم . وإنما دُمى إلى قصد واحد وهو
أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية . ومنى تكلمت عنهم فليس
أنسح في ذلك الخصائص الشريكية . ولا أعنى أن أساء السكندريين .
دوى العيوب الرق والشعر الأصفر قد كانوا فاهرين أو كانوا مذهبين .
ولا أنهم قد اتخذوا لغة اساده السمر الذين تعلو عليهم أو كان الأمر على
نقيض ذلك . وعدى أن عام الأحاس الذى يتكلم عن العصر لآرى
والدم والآرى والعيوب الآرية والشعر الآرى إنما هو فى حقيقته العنمية
كاللعوى الذى يتكلم عن مذهب مستطين الرأس أو أحمرومية مستديرة على
حد سواء .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب الشوء » كما كان قرن مذهب
لعلمية والفلسفة من شئى بوحياها ، ف رالت الأقوال فى مذهب لشوء
تسع وتنشعب حتى عرص بعض اناحثين فيه أن الأحاس البشرية
تنمى إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة
انميا هى أحاس بشرية بمعنى ، وأن المعولى والقرد المعروف بالأورابع سنا
من أصل واحد . وأن الرخى ولعوريلا والشمايرى تنمى إلى أصل
آخر . وكان رأس القائلين بهذا الرأى عالماً ثانياً من علماء الأحاس هو
الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch . أستاذ فى العلم بجامعة برسلاو
الألمانية فأعلن فى أوائل القرن العشرين رأيه هذا ، وأنده بما بدا له من
اشواهد والملاحظات التى كشفت عنها مقالاته بين أنواع القردة وأنوع
الإنسان

لكن قرن انتاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن الشوء
والتنطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن لتوسع فى الاستثمار وتسخير

العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية . فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللوية أو العنصرية الحسنة على أساس الدول والمعصر ، وقام في أوروبا من يبشر بامتياز أحاسيس الشمال على سائر لأحاسيس البشرية ومن يرد الفصل في كل فتح من هوج العلم والثقافة والحصارة إلى أصل الحس لآرن المزعوم في الشمال ، وأشهر من اشترى هذه الدعوة « ارثردي حويسو » في فرنسا وهوستون شميرلين الإنجليزي لمتحر من في ألمانيا . ولم تحل أمريكا من نصيبها من هؤلاء المدعاء وهي ميدان براع بين الأحاسيس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين لمهاجرين الأوربيين الذين ينتمون بالنسب إلى أصول مختلفة كالكسكسب واللاتين وأمم الشمال والجنوب فكان لوثرود ستودارد Lothrop

Stoddard وماديسون حرات Madison Grant على رأس المشيرين هذه العقيدة في الولايات المتحدة . ولم تكن كراهة الأحاسيس المبونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء إلى التبشير بمرايا الرجل الأبيض أو مرايا الحس الآرى خاصة من بين الشعوب البيضاء . وإنما كانت كراهتهم للحكومة غيره - أو حكومة المساواة بين الطبقات - باعثاً آخر إلى إنكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة ونهايتها بالنكسة وانحسار من حراء امراحها بأحاسيس غير الحس الآرى أو الحس الشمالي المتمد . فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى النزول عن أوج السيادة والإعداد لشريعة مساواة .

ولاشك أن حروب مليون بوابرت كانت لها يدقوية في تمكين هذه النزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذي تدرع لعاره عن محاربا القومى في محاب الصراع بينها وبين اللاتين أرى بين أمم الشمال

ونهم الخبث . وقد كان ديليون قائد فرسا اللاتينية في صراعها مع
الحرمان محدداً من خبث الخبث بالقاس إلى القارة الأوربية .
فكانت صبيحة لفحات القومى التي تستأثر بها الأمم خرمائية إلى الرحدة
هى تعظيم مرنا الحس الشمالى الذى يسمون إليه . واتفق ذلك في عصر
البحث عن الأحاس وعصر الشراء والتطور وعصر الساق إلى الاستعمار
وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الحرمان عن خيراهم ، فكانت صبيحة
التفوق العنصرى على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الحس الآرى
أن تنحصر فيهم بعد مودها في بلاد الإنجيز على لسان واحد منهم وهو
العلامة ماكس مولر الذى سقت لإشارة إليه ، ومن لم يدرت دعوة إلى
التفوق العنصرى لم تكن لها صلة بانقفاة الألمانية الحديثة من قريب أو
بعيد

• • •

وقد تعددت الأسباب التي ألححت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية
الاصية (١٩١٤ - ١٩١٨) بمسألة العصر ودعوى الآرية أو الأقواء
اشمالية وما لها من الرحمان على خلائق الله كافة من أوربيين وغير
أوربيين ، سوء في لرمن القديم أو في الزمن الحديث .
فقد احتاج الساسة الألمان إلى محاربة المذهب الشيوعى فوضعوا يارثه
مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهى تعنص بالخصائص لقومية في وجه
الدعوة الدولية التي ينشأ الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهى
عقيدة انشورة على الأوطان والأديان
ووفقهم الخصائص القومية في حرهم للشيوعيين من وجه آخر غير
مقابلة بين المذهيين . وذلك هو المفاينة بين عصر السلافيين وعصر

لتيوتون اندى يتسمى إليه الأندس فكانوا يقولون إنهم هم حماة الحضارة لأوربية من رخوف البربرة التي تهددها من قبل آسيا في الرمن الحديث واستعلوا دعوة العصر الآرى استعلالاً غير هذا ودك في محاربة اليهود باسم الساميين .

واستعلوها مع هذا وذاك لاستنهاص نخوة الأمم الحرمانية بعد هزيمتها المنكرة في ميادين القتال ، فتصحقوا في أوداحها أنها أهل للطمر وليست بأهل للهريمة لها خلقت للسيادة وتزهت في سلالتها الآرية عن شوب الأحناس ، وأدحلوا في روعها أنها كانت وشبكة أن تطمر بأعدائها لولا حياة العمال من قبل الشيوعية ، وحياة اليهود من قبل الشيوعية نارة ومن قبل أصحاب الأموال نارة أخرى .

فأصبحت دعوة العصر هوساً جامعاً كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآرى المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الأخلاق والصون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة سية حية تنبت من الدم القومى كما تنبت الحوارح في الأحسام ، وأن الرعيم تركيب داخل في تلك اسبة بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادى في كتابه : « أنا معشر الآريين لا نعرف الحكومة إلا كسبة ذات حياة يتلص بها الشعب من الشعوب » . . . فهي شيء لا يدخل في الإرادة ولا في لتربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب

وتطرح العلوم بدعاة هذه العنصرية حتى يلعو بها مع تلك النواصت النفسية والسياسية منعاً لم يسفهم إليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال فجعلوا أحناس الشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى

نتقى بالقردة ولا يعد أن تسلمها . وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين
فصائل الآرية جمعاء ترتقى إلى الدروة العليا في ذلك التيب . وعادوا
إلى كل رجل من أصحاب القرثج ، علاقة بين عظماء الأمم فأحقوه
بالآريين على وجه من الوجهة ، وعادوا إلى كل حجاج من مسكرات
الصناعة وأدوات الحضارة فسبوه إلى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو
مهاجرة إلى وطن من الأوطان . فحصر الحق وليادة في الآرية
لمجموعة دون غيرها وجعلوا العناصر الأخرى جميعاً عمالة على الآريين
ينتصرون بما يحققون ويدبون لسيادتهم طائعين أو كارهين

ولعل هذا العلم من جانب دعاه العصرية قد جرح بقاد هذا المذهب
إلى التعوي إنكار خصائص الأفوم والأحاسس ، وهم إذا علوا في هذا
لطرف كان لهم شنيع من الحجج والشكوك أدل إلى الإقناع من شنيع
العصريين .

وإنما نعرض لنوعين السياسيتين التي امتزجت بالحقائق العلمية في
مسألة الجنس والعصر لأن الإلزام بهذه النواعين يعين على تحريده الحقائق
لعلمية من أحلاطها العربية ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة
الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصي أولاً إلى دواعي انشكك في تلك الدعوة
، حارمة وهي كثيرة ، فيها عني التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة
العصريين ونسطل اليقين بكل عقيدة من تلك المعائد التي حيل إليهم أنهم
يؤمنون بها . لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان

من دواعي الشك في العصرية الآرية أن العصر الآري المعروف لم
يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي

تخلوه . وإنما كان جامعة لغوية شترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم
اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العصرية إلا كما يتشابه
لأقوام الدين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين لمواطن والألوان

قال العالم الإنجليزي حويان هكسلي في كلامه عن العصر أو الحس
بالمقارنة الأوروبية إن دعاة العصرية يتكلمون عن الحرمان والآريين
وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا حلف لا مسوغ
به من الحقائق وإنما لمقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالمودج
لشمالى مورعائين لأقطار الشمالية في أورما من البحر البريطانية إلى التحوم
الروسية ، وبهذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة
والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية لم يسب إليه قط فتح من فتوح
الحضارة وكشف من كشوف انعم أو أداة من أدوات الاختراع التي
شهرت في التاريخ . وقد روجعت مخرجات العصر الحجري التي ترد إلى
ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فإذا هي تمثل ثقافة
من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ديوها إلى شبه الجزيرة
لايبيرية التي عرفها باسم الأندلس - ثم إلى فرنسا فالبحر البريطانية
ومن يحقق أن الخطوط الأولى التي خطاها الإنسان إلى الحضارة حين
تعلم الحث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحجار على الدواب قد تقدم
بها في حوض البحر الأبيض حيث تفيم الأمم السمرية التي لم تسب إلى
السلالة النوردية ، ومن يحقق كذلك أن مشاهير الحرمان أمثال حيتي
وبتهوس وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في أقوام ، وليس نابليون
ولا شكسبير ولا أبشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي
يرغمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والأقوام

الطويل الرشيق لا يعرفان نزعهم من رجاء الدعوة النوردية أو لارية
المعومة فهتلر أسمر وحوريج سمير ناد وحويلز قصير دميم ورجاء
« الجكر » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلايين
والتيوتون . وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الخردية على الأمم قاطنة

ويتمتع علماء الأحاس ووصف الإنسان على نوع السلالات في
العنصر لواحده كما يتفقون على ندرة انقاوة المحص في عنصر أو سلالة
عالحنس الأبيض في القارة الأوربية وما حاورها بصوى إلى عوان واحد
ولكنه ينقسم إلى السلالات لنوردية ولأنيية وسلالة البحر الأبيض
المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنصوى إلى عوان واحد ولكنها تنقسم
إلى ييين وإييريين ويحوريين ستة إلى سم حال لألب ماين البحر
وسافوا السفى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين يعرفون
وحدهم في بحر « إيجه » على مقربة من اليونان .

واحسن لأسود . على كونه من المعاصر المتميزة بين أحاس لشر .
يختلف في بعض الصفات وبب تماثل في اللون أو تقارب فيه فقد عرفت
القنائل السوداء في أستراليا ولكنها تحالف القنائل الأفريقية في الخصائص
الوراثية ، من يقع خلاف في بعض الملامح والأخلاق بين السود
المتجاورين من أساء القارة الأفريقية أو أساء لإقليم الواحد منها
فالوشيان والموتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الأولين قصاص وثابون
مولعون بالصيد والقناب ولآخرين حوال يرعون ماشية ويميلون إلى
الاستمرار ويحاورهم السود من أنبايروفيا نيل الناش الذين يعمرن السود
الجنوبي وبعض أقالم الصحراء إلى الشواطئ العربية ، وهم جماعات

شتى بين رعافة رجل مقاتلين و رراع مقسمين مؤدعين . ويست هوارقهم في
السمات بأقل من هوارقهم لكثيره في الامامح والسمات والاعداد

• • •

وبعض هذه الشواهد استوترة يقرر له أن السلالات البشرية لا تنق
على وحدتها وانحدتها مع تعاف لأحيان وحتلاف مظارح المنحد
والانتقال . ولكنها تنورع وتنفرع وينشر التوريع وتنفرع في حصائصهم
ومراياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك في مراعم العنصرين
الذين يحصرون مراب البشر انبيا جميعا في سلاة واحد تنفرد بها وحدتها
بين سائر السلالات .

ومن دواعي الشك القوية في مراعم العنصرين أن كثيرا من المرايا التي
يصفون بها سلاة من السلالات يسهل لرجوعها إلى عواملها المحلية أو
الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الورثية الحيوية . وعلى ما
يعرف بالعوامل البيولوجية

فقد رعموا مثلا لسلالات لأوربية أنها انحدت تحت المعرفة
الطرية وملكة البحث عن حقائق لأشياء و « النصف » المنحد الذي لا
يرمى إلى شفعة القرينة سواء منها ينتمى به لأفراد أو ما ينتمى به
للمجاعات . وقالوا أن الشعوب الشرفية لا تحت معرفة هذا الحب ولا
تنحد للمباحث المفسفة هذا المنحد . ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في
الصاعات ومراقق العيش ومضالك الحياة العملية . ودليلهم على ما
يرعمون ذلك انما هو الطامرين في ثقافة اليوب وثقافة المصريين

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار العيب وقويين الوجود يدخل في
سطاق الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوسع وتسقط

بديها على العقول إلى حسب لدور العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية
لأشهر الكسيرة . فحينما وجد مهر كبير في صقع من الأصقاع لم يكن
هناك بد من قيام دولة عظيمة على شطبه تترس لرى والزرع وتصوب
لأمر وتصمم سلامة لمعاملات ، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم
يكن هاند من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق
الحث في العقائد والبسطة على عالم الروح والصمير . وكثيراً ما تجمع
لوطيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف
لأرباب » في التاريخ القديم . فإذا أصبحت أبحاث لعبيبة والمعارف
لتي نتاوب أنصوب الوجود حقا للكهانة تحميه الدولة فيس من المعقول أن
تسمع الحرية لماس يشنوا فيها ويسكرون كما تسع لهم في عبة الكهانة
القوية والدولة العريقة . ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير حيل
بعد حيل بين الأمتين حتى يسوح بلظر العاقل في النهاية أنه اختلاف بين
طبعين أو معدنين من معادن الخليفة الإنسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً هـ كهانات قائمة قبل أن تظهر
الفلسفة اليونانية بأدرف السيس . فامتد تفكير النود إلى محارب فلسفة
لتي كانت حرماً مبيعاً في صل لكهانات الشرقية لا بتخطاه عامة الناس .
وطهر الفارق من أحل دلت بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين . ولو
انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النل ودحنة والهرات لانعكست
الآية بلا مرأه .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة لقوية صمعت في أورن حين
بوطدت فيها مل ما صمعت الكهانات في الشرق القديم . فلما آمد سلطان
لكنيسة البابوية على الأمم لأوربية صرب الحجر على العقول فأحجم

الناس دهرًا طويلًا عن اسحت المحرد والتكبير في حقائق الوجود ،
وملغت الكهانة الأوربية على أحداثها ، بلغته كهانات الشرق بعد
أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ
كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الأوريين
يبتازون على الآسيويين والأفريقيين في معدن لشجاعة والبطوة الحربية .
واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في
معركة ماراثون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقافات من النقاد العسكريين
المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأحمار المعركتين فبالع فيها
جد المبالغة وأصنى عيبها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حير التاريخ
الصميم إلى حيز الملاحم الطومرية .

فلم يدر في خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستول على أرض اليونان
لأنها أرض حرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتحارة ولا يجشئ منها الخطر
العسكري على دولته المترامية الأطراف . وإنما عناه أن يؤدب أثينا وثينا
لأنهما تحاربا على معونة اليونان النافرين عليه في آسيا الصغرى . واغنى
بذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا وأوقبل إنه تلقى
من رعاء الشعب المتمرد وعدا بالانصواء إليه وحللا أولئك المستبدين
فأحمد الثورة في آسيا الصغرى ثم رحف على « أثينا » فعصف بها وأرسل
أهلها أسارى وسببا إلى شطوط الخليج الفارسي بسامو فيها سوم الأرقاء
ثم تقدم إلى أثينا وفي حسابه أنها مقسمة على نصفها مسرعة إليه
بالتسليم ولو من بعض طوائفها ورعاتها ، فلما وقع ما لم يكن في حساب
الفرس ولا اليونان وانفقت كلمة الأنبياء على السقاع عن بلادهم م

يشأن يعيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاوعة والعناء

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير
شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم حرق زركسيس
لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط لأجناس لكنه دون الصخامة التي
صورها اليونان بكثير . وكانت صحامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من
مرايه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر حدا من
قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن
الجيش كان مرتبطاً بمعونة الأسطول الذي يلازم الشاطئ ويحمل له المؤنة
واعتاد ويتكفل بقله في انخارات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول
معاً مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يعيب علمه عن اليونان ، ولما
التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول
أبصاراً ولم تكن من مرايه ومرجحاته لأن إمكان أصيب من أن يسع
لمدورات الأسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه
باحتلاف قواد اليونان في إدارة اسحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن
بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع معظم السفن من سلاميس

فيما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في
حرب ليونان ، وأصبح تحويل الجيش الفارسي صعباً من التحول بعد
صياح السفن التي مهي بخسارتها في المعركة ، فعلى زركسيس عن
المطاوعة في المعركة البحرية وإن كان قد طفر بالأتيسيين في المواقع البرية

ولا شئت أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب

اليونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل بقية
وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم و مناف
السلالة ، ولكنها اختلاف في الأحوال والملاسات ، وخديق بالدين
يسون آفة الاختلاط في الحيوش ويحسبون معبته على العرس أو الشرفيين
دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً
إلى العنصر الأوربي قد أصابتهم طريفة على أيدي الشرقيين وهم دولة
واحدة تقل عنهم في لعدد والعتاد ، ولم تعور الصليبيين في تلك المواقع
حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة الدعة لآرية أن العرس قديماً من سلالة
الآريين وأنهم أقرب إلى أئمة الشهاب من يونان الخجوب ؟

إن العلم المحسوس هردريك هرتز يذكر أن اختلاط البروج بأهل
أوربا في الزمن القديم . ومن المصد في هذا الصدد أن نقلها ما
أوردناه في كلامنا على مفاخر الأحاس بالجزء الثاني من « ساعات بين
لكتب » . . . وهذا بعض ما جاء فيه .

« البروج أثري أوربا تدل عليه الخبايا التي وجدت في ألمانيا
وبسجيكافروسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجدت فيها مدائح ثمانى سنوات في
أفريقيا الجنوبية وقد بنى أثر للأقزام السود في حبال الألب إلى عهد بليني
لدى تكلم عن هؤلاء لأقزام وعزرت كلامه القصص والأساطير

وبرغم شميرلين أن عرفان حقوق الحجة هو مزية الآريين التي لا
عرفها لساميون في الشرق لاستعرفهم في الماده وتقديمهم المال واخطام
على الأدهن ولأرواح فيجبه الأستاذ هرتز بحوب معجم هو المقارنة

السيطرة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابى فى محاسبة المدينين . فالروح الثالث من ألواح القانون الرومان يبيع للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا فى مدى سعة وعشرين يوماً من يوم القص عليه وتكيله فى الحديد والحمال . وأما شريعة حمورابى فهى تقضى بأن يخدم المدين دئنه ثلاث سنوات . والقانون يحميه فى خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . رد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين فى أمور أخرى . منها أن السارق المضطر معدوم فى شريعة حمورابى . وهو غير معدوم بحسب من الأحواب فى شريعة الرومان ، وأن الأب الرومانى يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الروح البائلى لا يجوز له أن يقتنى السرارى بعير إذن من روحته وليس لمروحة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الخط من دينه . إذا نقصت علة أصه وليس فى الشريعة الرومانية شىء من هذا القيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الخطم فى شريعة حمورابى ثم من شواهد القسوة وتقديم الخطام على الحياة فى شريعة الرومان .

ويرفع شميريين اليونان إلى لسماء ويقول إن علومهم وهدسقتهم وهومهم مر جمعها إلى صيغتهم الآرية التى يمتارون بها على الآسيويين واساميين . يقول له هرتر إن أرسطو فى زمانه كان يطرئ مواهب الآسيويين فى النصوص ويحكم على أهم الشمال بانعقم لدى لا علاج له فى المعارف بعينه والسياسية لعله الخرائتى لا تدين ها على تعاقب الأزمان . ويقول هرتر أيضاً إن نوسيديد لمؤرخ انيونانى . ذكر أن انيونان كلها كانت فى قصة البرابرة . وذكر هيرودوت أنه كان سمع فى زمانه لغة البرابرة فى بعض

أبناء وطنه ، وأن العلماء المحدثين كرشمر وكيسليج وفك - أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء المواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت . والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوى سمى وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية ، وكذلك تنفق الأقوال على أن ريمون رأس الفلسفة الرواقية آسيوى الأصل والنشأة . بل يقول فيرث . إن هومر نفسه سم سامى آسيوى مخرف من « زومرا » بمعنى المغي أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس لأنه يرى أن الفواصل بين أى شعبي في العالم ليست من العدد والحيولة بحيث تستعصى على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام فهيبال الرجيى الذى افتناه بطرس الأكبر ارتقى مذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف ، وكان حميدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا . وسيمان وهو رجيى آخر كان في البلاط النمساوى في القرن الثامن عشر ربي سيدة شريفة وقربت بته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان رخمار صنعت بأدبها ورجاحة لها مكانة تغط عليها في البلاط الألماني وأصحت صدقة حمسة للإمبراطورة فردريث وكتبت لها ترجمة حياتها اننى عنوانها « من قصة أميرة عربية » وقد كان الدم الرجيى بحرى في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمض الأحمر والحمض الأزرق أو بين الحمض الأبيض والحمض الأسمر . أما في بني الإنسان فالعرق الأبيض بالعموم ينبع من النعانة كافي لأن يشق من الأوهام الجنسية والعصبية الشعبية أسخفها وأبأها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرىنا بظهر أن العروق الكثيرة بين ألوان بني الإنسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتورع في مادة صبغة واحدة متماثلة في الجميع » .
كلام إذا رجعنا به إلى الأسايد والبيئات فهو أقوى سداً وأثبت يسة من كلام المرقين في تمحييد الأوربيين وتفصيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى بإصعائنا من كلام أولئك المرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تريد دعوى المصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نجبة واحدة ويفردونها بفصل المرايا وأشرف الأحلاق بين السلالات الإنسانية

ونكننا تتجاوز الحد المأمون إذا تجاوزنا هذه الحقيقة إلى ما وراءها ، فكل ما هو محقق و صدد المفاسد المصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه المصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النمسية فهذه هروق موجودة يرداد ظهورها في بعض الأفراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأني لنا أن نتجاهلها وتتجاوز عنها إلا إذا تجاوزنا العيان وغصينا عن المحسوس المائل لجميع الأدهان وقد يوجد من المصريين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة

بيها على الباحث المحقق فضلا عن الناظر عرض الطريق ولكن
انتشابه حيناً لا يجمع لاختلاف في جميع لأحياء ، ولو دهما سطل
لمخالفة بين الأنوع كلها وحدث امشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين
لإنسان والحيوان على هذا القياس ، فإذا قيل إن الحيوان يمشي على أربع
يمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان يمشي على أربع ، وإذا قيل إن
الحيوان أعجمي يمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان أبكم وإن بعض
الطير ينطق كما ينطق الإنسان وإذا قيل إن الحيوان مستوب العقل والتفكير
يمكن أن يشار إلى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، وإذا قيل إن
الإنسان والحيوان لا يتناسلان يمكن أن يقال إن الكلب حيوان والظرو هما
لا يتناسلان .

توحيد المشابهة في بعض الأفراد لا يفي بالمخالفة في عامة الأفراد
وقد يشهد تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم بتقرر ولكنه مع ذلك يبقى
فارقاً حاسماً إلى أن يوحد التعريف .

واحد المأمون الذي لا يريد أن يتحاوره في هذا الصدد هو ما أسلفناه
من أن الدعوى التي تمرد بعض العناصر بفصل المراتب وأشرف الأخلاق هي
دعوى يعورها الدليل القطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات
العنان ، أما الاختلاف بين خصائص الأحاسيس فهو موجود لا شك فيه
وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الأفراد .

من المشاهدات - ومن التنبهات معاً - أن العربة في السب وفي
لتعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العربة في
لصفات الحسدية والخلائق النفسية على السواء

ومن المشاهدات - ومن التنبهات معاً - أن الشعب الذي يقضي

عشرة آلاف سنة ولأء في مكافحة العوارض الحوية والاحتيايل على مواع الطبيعة والتأهب للمعاحآت من جيرانه ومن طوارق الأرض واده السماء ، لا يشه شعاً نصي مثل ثلث الدهور في الدعة أو في العويل على المصادفات وهو معنى من الحيلة واجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن لنوارث في الخلق والخلق موط للناسلات Genes التي توحد في حلايا الذكور والإباث ، وأن هذه الناسلات تتقرب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة ولكن لا يعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الرمن يكفى لتحويل العوارض التي نشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وشتقل من الآباء إلى لأباء ، ولا يعرف على وجه التحقيق هل ما يوحد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والدى يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة . ويعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تحرية من لتحارب المقررة أن دراسة الوجه الإنساني تدب عى كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة رثق لارتباط بالأعصاب ثم بالعظام فأنت لا تحظى تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وحة أسائها ، ولا يعونك أن تعلم أن هذا الوجه السهل اندى نعلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وحة أناس مارسوا في ماضيهم قليلا من لكهاح وهبلا من التحارب وهبلا من حواهر النفوس ، وإن ذلك الوجه الحرم الذى بلغت إلى متانة الأعصاب والعظام قبل أن بلغت إلى نصابة اللحم والدم هو وحة أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم

يستسلموا لسهولة العيش مد رمس بعيد ، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحارمة في الوجوه ، فإن اللحم لا ينقلها ولدم هو يحرق الناسلات ولكنه لا يحرق القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل في مخارن الأعصاب ثم في مخارن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم فيما تقدره - أن تهتدى إليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة به وبين مراتل الانشاء والتسيه .

وبها يقل العلم عدداً في هذه المسألة فإلدى بحرم به مد الساعة أن وحوه الأمم التي قصت ألوف السنين في الخلد والاعتزام تحالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وإن الاستدلال بعلامح الوجوه طبيعة في جميع لأحياء ، لأن الحيوان ينتظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذي يقابله ليحكم هل يسلمه أو يساحره ويتحداه ، وإن كانت الوجوه لا تبدى كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفى كل ما في النفوس والعقول .

وحسنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت لمشاهدة أن خصائص الأحسن تورث إلى مد رمس بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وإن بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الأمرد بعد روال أسسها إلى حقبة طويلة ، وإن الأساء يتقونها عن لأباء بالفدوه والتلقين وإن لم يقلوها بلورانة كما تنقل الخصائص التي تشمل في الناسلات .

وبيننا هنا أن نيسط القول في خصائص لأجناس جميعها ، لأن

الحسن الأسود هو الذى نعتنا بها فى هذا الكتاب ، وهو من الأخناس التى يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف فى وصفه أقل من الاختلاف فى وصف غيره من الأخناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ومن نفل هنا شذرات من أوصافه فى كتب علم الأخناس وعلم الإنسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختيار

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب "حناس العهد القديم :

"إن الزنخى مستطيل الوجه شديد برور العكيز مع ضمور فى الدقن ، أنفه أفطس واسع المنحرف ، وشفناه عيطنان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وصرس العقل بها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الحجم طویل الذراعين ، وريالات ساقه معية ، وقصة رجليه مسطحة مع انقباض فى الإبهام ، ومادة الصلعة السوداء فى الرنخى كما أسلها سرى إلى عضلاته وقد تسرى إلى دماغه وهو بالقياس إلى الأدمغة الأخرى بسيطة التلافيف . وميله إلى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو معرم بها شدة غرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الرنوح قما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويعت عليه الكس والإيمان بالخرافة ومن طبيعته العطف والود . وهما حصتان ترعبان من قديم الزمن فى اقتنائه وخدمته . فبد عصور الزراعة فى الأسرة الأولى كانوا يعيشون الحملات إلى بلاد كوش لاستحلاب العيد منها ، وكان عدد الزنوح عشرين كثيراً على الأعلى فى جميع الأزمان . ولعل عند ملك الذى

أنقذ حياة السبي أرميا كما جاء في الأصحاح الثاني والثلاثين كان من
الزئوج وكذلك الكوشى حد اليهودى الذى جاء ذكره في الأصحاح
السادس والثلاثين إذ يقول . (فأرسل كل الرؤساء إلى باروخ يهودى ابن
شيا بن شلمب بن كوشى قائلى . الدرج الذى قرأت فيه في اذان الشعب
حده بيدك وتعال)

وومع قدم الاتصاف بالخسارة لمصرية تلك لقروب الطوان لم يتعلم
الربحى منها على الأرحح غير صهر الحديد ، فحاء عصر الحديد معق
لعصر الحجر توا في تاريخ بعض القائل بغير توسط من عصر الشبه أو
الحاس .

والربحى مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا بعث المظر أنه لم يظهر
قط رغبته في الرسم خلافاً للمصرى المثقف ، بل خلافاً لأناء قائل
الوشمان المقيمين بأقصى الحوب في القارة الإفريقية ، فإن رسوم الحيوان
على جدران التى تحتوى بها قائل الوشمان حية ملهمة ومنها ما لبس
يحلح المان الأورنى إذا سب إليه . وهى على الحملة تعصى سا إلى
سؤال عن قدم الحنس الزئحى في التاريخ .

« في جنوب مصر تشاهد الصحور الرملية التى تعصها رسوم الحيوان
والإنسان ومنها الحديث الذى لا شك في حداثة وانقديم الذى لا شك
كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم
ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تعبير
قليل من أثر العوارص الجوية حتى ليحيى إلى الناظر إليها أنها من عمل
أمنس القرب . وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارص
الجوية أنها قد مصى عليها ردىح طويل من الزمان ، ويرى عدا هذا ..

بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الإقليم كان أرضاً فاحشة من بداية لتاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بماء تعطيها أشجار الخسك التي يرعاها الزراف . ويشتر رسم النعام في تلك الرسوم كما يشتر رسم الزرافة مع احتفاء رسم النعام من لمقاطع الهيروغليبية التي تمثل فيها لطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وحليق هدهد ، أن يدلنا على أن النعام لم تكن معروفة عند مخترعي الكتابة المصرية الأولى . وأن سير فلايدرس يرى على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متحللة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل . وتزيد رأيه كشوف السامحين في جهات أخرى من أفريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك لرسوم في جنوب تونس ومراكش . وقد أستطيع الاعتماد إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فإن الدكتور بوبه Bonnet وجد في وهران الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملفاة تحت بعض الصخور التي عليها تلك الرسوم ووجد على مسافة عبر بعيدة منها المصنع البولوني الذي تصنع فيه تلك الآلات . ومن ثم يعلم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية . وهو عهد في مصر حد بعيد « من الصعب إذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى محصنة وكانت داء مصر ذراعاً من البحر الملح كان حيل من الناس قريب إلى حيل النوشمان يرون في أفريقية الشمالية بين السواحل الاطلسية وشواطئ نهر النيل . ولعل قبائل الأكاسيين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرؤوس في أواسط أفريقية بفية ذلك الحيل

القديس ، وقد أحطهم عن مواطنهم عارات الزبح وم تزل بهم عارات قبائل الناس أو الكافرين حتى أختهم إلى جنوب القارة الأفريقية ، وقد كانوا حسديا دون أعدائهم في لقوة وإن لم يكونوا دوسهم في المرايا الأدبية ، وكانوا على كل دوى ملكة هبة تعور الزبح والكافرين على السوء وهي ملكة الرسم إذ لم يكن في وسع الزبحي أن يرسم أو يتمم رسوم الصحور في بلاد النوشمان ولا رسوم الصحور في أفريقية الشمالية

« وقد كانت الحبال التي تخذ الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق في القدم ، وقد وضعها هذا لحيل نفاً ويبا أنه ينتمى إلى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض ، وربما شهدنا اليوم في قرى إبحرة وأيرلندة فروعا من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ، والحدود العتيق الذي تدينه له تلك القبائل تؤكد لنا لأثر المصرية كما نجلوه ملامح البيضاء التي بقيت له إلى الآن »

• • •

وكلام الدكتور سايس هد في أوصاف خمس الزبحي وتاريخه العريق قبيل الخط كثير الصوب ، أو هو من أصبح ما كتب في هذا الموضوع ، ويرد عليه من كتب الأحاس الحديثة أو كتب عم الإنسان أوصاف أخرى بعد بعضها من قبيل لتصحيح وبعضها من قبيل التكنة ، تأتي عليها بإيجاز.

فانهم الأسود في الأحاس السوداء لا يتعمق في وراء بشره لطاهرة عم تتساوى ألوان الجسم لإساق في جميع الأحاس ، وما يأتي سواد من صفة في العشاء الذي يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسرى على ما وراءه إلا عرساً في قبيل من الأفراد.

وقد يفهم دلالة الصيغ التسعة في تركيب المجموعتين وهما أن
مجموعة خمس لأبيض بين الأوربيين ليست أوسع الحرحم الإنسانية
ولا أوسع من حياحم غيرها من الأمم التي لا تحاربهم في حصاره . فإد
حسنا قطر بدماع من الأمام إلى الخلف مائة خمسة العرض إليه في الرخي
سعود وفي لأوربي ثمانون وفي الساموي من أبناء حرر المعروفة عرب
المحيط الهادئ خمسة وثمانون

والرخي طويل الذراعين تصل ذراعه إلى مركبه في بعض الأحيان .
وشعره الصوفي معروف هو أوضح العلامات المميزة بين جميع
الأجناس .

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تحلوه ونقدم
الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه . وأن العبرة
بجهود العلي الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بتطبيق الثقافة التي
نحس بدلت الأمر في سلم الثقافة العامة فالمعادلات الرياضية العليا
أرق في سلم المعرفة من الجمع وال طرح في الحساب . ولكن المعادلة
الرياضية العليا لا تتطلب من دهر جهد من المتعلم جهداً أكبر من جهد
الرجل الرخي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين .
ولا سيما إذا كانت نهاية العدد عدده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين .
أي عشرين

وقد عرف أن الرخي في قائل « النوى » التي تقيم عدد « سبرليون » قد
اخترع نوعاً من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة
الأخرى التي عرفت في بلدان الحصاره

أما خطه من الصور فليس ملحظ القليل إذ نظرا إلى حاجاته

الطبيعة ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل « هافلوك إيبس »
حين قال « إنه قد سبقت سبيله إلى الحصار راقصاً » قد لحص ملكته
المنية أحمل تلخيص .

الرقص لا يكون غير نعمات ، والمرح المطوع في الرنحي هو مسعت
وحيه الذي أهمه الرقص والعناء ، فهو عظيم الولع بالأعلى سريع الأدن
إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرت قبيحة ، ويسمى أن يفرق بعض
التصرف بين ملكه للموسيقى وممكنه العناء والإيقاع لأن الأصوات
للموسيقى تبعد عن التراكب والسرع مبعدها من الإيقاع الذي
يصاحب حركات الأجسام في الرقص الفطري أو الرقص الحديث
والرنحي يحب العناء الرقص ويبعد فيه ، وقد عرف به حيث نزل من
بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص لنوتة الذي علمنا - في
سيرة النبي عليه السلام أنه دعا السيدة عائشة رضي الله عنها إلى التفرح
به واستظر إليه ، وكان يعرف بالزيف لسرعته وتولى الحركة فيه

ولما اشتغل الزنجي بالقول الأخرى كصنع النماثيل كان الإيقاع رائده
الأول في هذه الصناعة التي قد يظهر بلوهلة الأولى أنها بعيدة عن العناء
لأن أسس التوقيعية كانت تغلب في النماثيل الرشيحة على مشاهدات
الحياة ، وكانت مبد وحدث تنقل لشبه فتحس نقله ولكن على عطف
واحد يقل التصرف فيه ، وهي لا تزال ليوم بحيث وحدث منذ آلاف
السنين .

وشيوع النماثيل وصوغ المعادن وسح الثياب الموشاة بالخطوط
والأشكال مع بكرة الرسم في قائل الريح أمر لا عربة فيه . لأن تقليد
الحسم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقليد

الذى يوجب لتصرف لتثيل العرص والطون والقرب والعد حب
لا عرض هناك ولا اقتراب ولا اعتماد.

ونماثلهم مع غيبة لايقاع عليهما - سمة أخرى تعرف بها بين سائر
النماثل القديمة . وهي سمة الخوف والتخويف ، وهي كذلك سمة لا غربة
فيها إذا نظرنا إلى الأخطار التي تخدق بالزحى بين الوحوش والحيات
وآفات الأرض وصواعق السماء . ونظرنا إلى العرص الذى يتوجه من
صع كثير من تماثله . وهو لسس الوحوه ولأقعة انى تحب أعداءه فى
ميدان القتال .

ولم تزل صون القتال عند الزحى صربا من العر الحميل لأنها تمزج بين
الحركة الرياضية وبين الرقص والايقاع والعد . وليس أشبه بمناظر
الرياضة الحديثة من منظر الزحى وهو يقذف بالرمح ويوارى بين وضع يديه
وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد . كأنه
قد ركزه فى اهدف بمتاه

والزحى شجاع مقدم لا يهاب الموت ولا يسكن عن الألم . وقد
تلهمه السباط ويسيل الدم من أهابه المرق وهو صابر لا يتأوه .
لأنه بحسب الفرار من الألم كانهارار من الموت حبا لا يحمل بالرحال .
وقد عودته محاربة الوحوش والأفاعى ومخادرة الدائمة من المترصين به أن
يقسو عليها وأن تقسو عليه . وأن يحتمل القسوة على نفسه كذلك . وفيه
إلى حاب الصبر والشجاعة عماد شديد حين يحشى ان ينهم بالحق إذا
صدع بالأمر فراراً من العذاب

وهو مصدق وهي يؤمن بالعقائد التى توارثها عن أسلافه وأكثرها من

فيل السحر وعبادة لأرواح الخفية ، وتقديس الرُقي والتعاويد التي
عصمه من فعل تدث الأرواح .

والوفاء فيه طبيعه لأنه يشأ على طاعه لرئيس في انقياده وطاعه الساحر
الذي يعلمه ويحميه . وقلما يعذر أو يحجب بها واحد من يكسب ثفته
ريشتمل على عطفه وولائه . وإنما يعذر ويحجب إذا توحس وسلبت منه
الطمأنينة . فإنه ليرجع إدد إلى حياة مخاوف والأخطار التي علمته الخدر
الدائم بين الوحوش والآفات . أو بين الأسرار العوالم التي يكسب
الساحر بجالاتها له على ما يعتقد ويروم . فيعمل في حالة التوحس وسلب
الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل المهاجم لدى يتوقع الهجوم من كل
مكان فلا يبالي ما يصنع وهو عاصب يائس محروم من العطف والحنان

ربيعي - قبل مراقبة الرخي وتسجيل عرثه أن يسي أن يرقب
حلقة عرية تحالف ما طعنا عيه . لأسا حريون أن يستعرب كل شيء . د
عن توقعنا العراة والاسعرب فيمر ما العمل لدى يعمل به بناء لعنة
وعصرا دون أن يلتفت إليه . ثم عمر ما هذا لعمل بعينه حين يعمل
العرب فسرع إلى التته له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر إلا عن
مثال ذلك العرب . وكثير من عرائب الروح وعرائب الأحناس عامة
لا تحسب من قبيل العرائب إلا على هذا الاعتبار

• • •

ولو ساء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية
الكيرة كما يلتفتون إليها كل يوم في خفائق لاجتماعية الصغيرة . وما
سمع العدة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشتهرين بالسوء فيقولون
عنه « إن صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره

فسرعان ما يشه إليه الناس ويتعقبونه بالدم والتشهير ويمصى غيره بمعنته
دون أن يشه أحد إليه فصلاً عن دمه والتشهير بمعنته . وهم يستعبرون
هذا لوصف من نعه ارفعاه الذين يرددون الحروف «الأحمر» بالحر
وبعقاب وهو لا يصنع شيئاً غير الذي يصنعه إخوانه في القطيع من دوات
انهرء السود ولكنه يظهر وهي لا تظهر . فيعاقب وحده وتجو هي من
الملاحظة والعقاب .

واحسن الأسود له عرائنه الكثيرة في الأخلاق والعادات . ولكنه إذا
بدأنا بالاستعراب أو كان الاستعراب سابقاً للمرافعة كما حلقاء أن نجد
العراة حيث لا عراة على الإطلاق . وحسباً أنه يخالف الناس في أصول
النصاع وهو لا يفعل إلا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من أساء آدم
وحواء

أما مداركه العقلية من الوحي قبل الحكم على طاعتها الأصيلة أن
تذكر بصرواها المختصة التي باعدت بينه وبين حيل البشر الأخرى في
مواطن الإدراك . وهي مساحت العلوم والصناعات

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الرعي مقصراً عن لأحاس
البصاء والسمراء في علوم الهندسة والملك والطبيعة والكيمياء . لأن
حسابه لم تلحظه قط إلى الملاحظة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم
الأخرى من حركات الأحرار السماوية ومن علوم الملك والظواهر الخفية
والأنواء . ولم تلحظه قط إلى إمامة الصروح ومراوغة أسنء بالأحجار فيعرف
من قواعد هندسة وصناعات البحث والعمارة ما عرفته الأمم التي تهتت ها
الوسائل ودفعها الضرورت إلى التشييد والتعمير . ولم تلحظه قط في توفيت
مواعيد الري ولا لسيطرة على مجارى الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص

لحوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والفحط مراقبة المدير المسئول
عن عواقب الإهمال في هذا التدبير . وم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو
الغذاء وسجج الكساء وصروع الآبىة والأدوات لنى تستخدم في هذه
لأعراض . ولم ننحته قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره
رصينته من لعطل والمساد . ولا أحنه إلى تفتيق الحيلة في ابتداع
هاين الحرب من مطولة للحصار وتوزيع للأسلحة واعتماد على أسلوب في
الكر والفر عبر أساليب الأحياء المحذقة به في حراة تارة والاستحفاء تارة
أخرى ، لأن أبناء القارة أحمسين درحو على عطف واحد في الهجوم
والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المعبرون
والمدفعون ، فلا حاجة لهم إلى التفوق والاحتياال على مختلف المواقع
وللأسلحة ولأساليب

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وحدوده سهلا مبسراً غياً
عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فإذا بنى من وراء ذلك سر
يجهلونه أو محدور يتقونه فهناك الساحر كميل به يكلمهم مؤنثه إذا صدقوه
وأطاعوه ، ومن لم عاشوا حياتهم كنها وقصوا عصور لتاريخ وما قبل
لتاريخ وهم بين الدعة ولطمائية إلى العيش ، وبين القتال والحلاد ،
وبين التصديق والنعود فانرق والطلاسم ورموا هذه الحيلة أعواماً بعد
أعوام وأحقان بعد أحقاب ، نغير حاجة إلى التدين أو التجديد

فالأمم التي عرفت الهندسة والصك والعبرة والكيمياء وأدوات البدح
والرفاهة إلى عرفتها لأنها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حققة طويلة
بغيرها ، ولو عاشت في القارة الإفريقية كما عاش الروح لأهملتها ولم تفكر
فيها ، ولا شك أن الروح لو بدأوا حياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك

الأقوام لا اخترعوا حتراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم
بغير فارق كبير في جوهر الأمور .

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ما حدثه لإنسان الفطري عمل
عن العلوم الأخرى فقد حدثه اسود وبرعوا فيه ، ولم تفهم خاصة لازمة
لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة
والتنويم .

ونحن لانعى هذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من
أحاسس البشر أن العرق بينهم وبين تلك الأحاسس معدوم أو قريب
التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعى أنه يرجع إلى أسباب تجور عنهم كما
يجوز على غيرهم فهم وسائر الشرقي أصوفا سواء .

ولو نظرنا إلى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الأدبية فحصوله
وأحادهه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً
محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد سمع منهم في العربية شعراء
معدودون من طراز عنزة وسحيم عبد بنى الحساس ونصيب والأغربة
المشهورين الذين أحادوا الحماة كما أحادوا العزل والنسب ، وبين عزهم
والأغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلة قريبة
لا تصعب الثقة فيها ، ولكن الطبقة الغنية والنفسية التي ارتفعوا
إليها في ذلك الغرل تدل على أن الآباد الطوال التي قصوها في المعيشة
لا تلبث لاتحجمهم عن الطرف الاجتماعي إذا وحدوا السبيل إليه ،
وما أحسب شعراً من شعراء الحصارا يترفع عن توفيق هذه الأبيات التي
نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد اسقام من فر كل جمال لوجهه نع

ما يرتجى؟ حجاب؟ من محاسنها ماله في الفلاح متسع ؟
غير من لونها وصغرها فارتد فيه الحمار والبدع
لو كان معنى الفداء قت له هأنأ دون الحبيب يا وجمع

هذه لأبيات من روح العكاشة ودعابة لطرف وانعطية إلى محاسن
الملاحه المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل

• • •

وسدولنا أن هوارق الإدراك لم تصل العقول في أمر الحس للأسود كما
صللها ذلك اللون المائل للنظر قبل مشول الفورق العقلية والخلقية للصائر
والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لأهودة فيها . وانطلق
الحساسون في طريق البحر الأحمر وبحر اهد وسهر النيل يحملونهم إلى بلاد
العرب وما بين التهرين

كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان . ولم تكذ الديب الجديدة
تكشف لأساء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذ الساء الذي بدأت به
أقدم الأمم من ألوف نسيين ، ونحن فصائل هذا الحس . وفي مقدمتها
الوهاء والصبر والقناعة كانت أسرع من نقائصه في الحياة عليه . وهذا
تمادى الحساسون في نقل السود إلى أمريكا وانقطعوا عن نقل اهود حمر
إلى أوربا بعد سوت قليلة . لإحصى التحرة وصياح الأمل في صلاح
هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المنقيد .

وبخلاصة ما يبقا في تاريخ الحس الأسود إنه حس قديم معروف و
القدم يوعل في أصوله إلى ما قبل التاريخ برمن بعيد
وإنه حس قد وقف به انباء عند حدود الصغرة الأولى لأن معيشته في

القارة الإفريقية لم تنجته إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع
الصناعات وتدبير وسائل الادحار وخيصة للمستقبل السعيد ، ولكنه عرف
كثيراً من المفاسد والملكات التي توائمت في بيئته المستقرة . لأنه عرف
النصاف والمرح والإيمان معروفاً لشجاعة والوفاء والصبر على الألم
واستنط الفنون التي توافق مرجه وإيمانه بالمجهول .

وكأنما انقضت عليه منذ القدم عراذى الإحباط حميماً ولم يسعده حظه
باعث واحد من بواعث الإنصاف والرعاية . وصطبحت عليه أسباب
الحشع والاستغلال وعراة المطهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهرية التطبيع
والتعويد . وجعلته هدفاً سيراً للقاصير والمحاسن الذين يحصرهم الطمع
ولا يبرعهم عنه وارع من وشائج العطف أو رواجر الأخلاق

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طويلاً بعد عصور طوال إلى عصرنا
هذا الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الإنسان
وحقوقه ، وشتعلت في الكرة الأرضية حروب عالميتان في النصف الأول
من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة اساقية التي تقال لإبصافه وحماة
حوربه أكبر وألرم من الكلمة التي قاسها لخصارة الحديثة إلى الآن

في هذه السة التي نحن فيها (١٩٤٥) بعقد مؤتمر الجماعات التي
تشتغل بالتشير في الحرر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب به
بأهم الحصار إلى نحو القوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات
البريطانية ، وأعلنت حمة الكائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي
ترجو معه أن تحرر الأمم المتحالفة وعودها بشكررة بالتسوية بين الألوان
والعاصر في قرص التعليم والحياة ،

ولا تزال القوارق الحنسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد

الدعوات فيها إلى المساواة وإعراض عن المراعى العصرية التي روجها
حكومة الدولة الأمريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، هي لولايات
الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بخصوص القوانين والأوامر
الحكومية . ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة
والأرامل معهم في الخانات والصادق . ولا يعلم أسانهم في المدارس التي
يتعلم فيها أبناء البيض . ولما صدر القانون الذي يحول الطفل الأسود
حقاً في التعليم كحق الطفل الأبيض مع انفصال المدارس والجامعات -
تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لاحقيقة . وأن التلميذ الأبيض يكلف
الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في
السنة ولا تزيد كمية التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم
من نص القانون . وتبين أن الفارق في ولاية مسيسي يتجاوز ذلك كثيراً
لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة
الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألقى في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة
بين البيض والسود . ولكن هذه التفرقة ماتزال قائمة بحكم العرف
والعادة على نحو لا يقل في صرامته عن صرامة القوانين . فلا يرى الأسود
إلا من الهدى من الفنادق الكبيرة أو حالساً في مطعم من المطاعم
الفاخرة . وإن كان من أصحاب الثراء

• • •

وإطاء الحضرة لعربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الإصاف
فصلاً عن تعيينه هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الإسلامية في هذا
نصار الإنسان المتوعر المهجور من قديم الدهور . فإما حصلت في

ادب لإبصار والمساواة بين بني الإنسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ما حذر
من مصالح الاقتصاد أو من عادات العرف والأخلاق . من خلصت
إليه على كره من تلك المصالح وعلى دعم من تلك العادات . واحترت
على سطون المادة الصناعية بسطون الروح الرفيع . ولا يحب الدين ديباً
مالم يكن به سلعون روحى يعنه على طعيبات مصالح وأشهاد

• • •

وقد كان هذا السلطان الروحى هو السلطان الذى أدعى له السادة
والعبد عند ظهور الدعوة الإسلامية بين قبائل البادية العربية . واشتمل
على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مؤيد ضعيف عربى فى
أرض الحجاز . كما اشتمل على بن بكر والمباروق وعثمان بن عفان وهم
سادات مكة وأفطاب قريش

والذى يعيننا فى هذه المقدمة عن تاريخ الأحسن والحسن لأسود
خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال

وليس الملتقى بينها بعسير .

فنحمل الصفات المتواترة التى وُصف بها بلال بترأى لنا أنه قريب
الملتقى بخصائص الحسن الأسود التى أحملناها فى هذه الصفحات
ولا يحب أن نقول إن الذى يتصف بتلك الصفات من يكون حتماً
لزاماً إلا من الحسن الأسود بخصائصه المعلومه فلا يزال من الحائر جداً
أن يكون بلال على تلك الصفة . فبى عدد النوب ولا يكون من لقائل
الإفريقية السوداء . ولكن لدى نقان ولا يحذور حد نصيحة فى المقام
أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من عراشب المصادفات . ولاداعية عندما
الآن لتقدير تلك المصادفات

فمن يكثر لادن اسود لإهاب لكاست في صفاته النفسية علامات
لا تستعرب في الأحاسيس السوداء لأنها من خصائصها المميّزة التي تبرز
فيها عند مراقبتها على الإحتمال . ومنها حب الأبقاع الموسيقى وسليقة
الإيمان والتصحّية والعباد والصر على عذاب الحمد والوفاء من يستوى
منه على مكان الثقة والإعجاب .

ولكن الحس الأسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفاته
الحسدية فيما عدا لون السواد . فلم يوصف بالعطس ولا بعلط الشمتين
ولا بأشعر المتقصص المتصوف الذي حص به التزوج . والدس يشاهدون
على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرفية كثيرون حتى هذه الأيام .
وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قدم بالأحاسيس السامية أو بالعربية منها
على التخصيص . لأن رحلات العرب إلى سواحل أفريقية الشرفية قديمة
قبل الإسلام بزمان بعيد .

ومن علماء الأحاسيس من يربط بين حبة الأحاسيس وحلة العرب -
ولاسيما النماية - برباط وثيق . لأن عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور
أهل الحبشة إلى اليمن ميسرن معهود من أقدم العصور
وقد قيل في تاريخ ملال إنه من المؤالي المؤسسين بحكمه أو بالسراة
بماية . فأصدق ما يقال فيه إنه من سلالة ربيعة سامية . وأنه على أقرب
ما يكون الرنج من خلائق العرب أو المستعربين .

العرب والأجناس

أبعثنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العصر وحواري
الأحس ، فبأن كان قول لعلم في هذه العصبة العصرية - أو الحسية -
فالقول الذي لا يرب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه
العصبة ، ويلتبسان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما ، وهما
المفاخرة الحسية والعداوة الحسية .

فقد تكون مفاخرة حسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة حسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة صيغة الجماعات حيث كانت من قديم أرماسها وقد
توحد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، وبين
بناء الشام وبناء الجنوب ، وقد تتماخر البيطون من ل قبيلة الواحدة
ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتماخر ، وقد تتماخر وتتعادى في آن ،
وهي من حسن واحد وقبيلة واحدة .

وعندها في مصر مفاخرت كثيرة بين أساء القاهرة وأبناء
الإسكندرية ، وبين بناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول
اللهجات والأدواق ولأطعمة لا تتجاوز المكاهاة إلى الحد في عامة
أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أساء الأقاليم الإبحيرية أو الفرنسية أو
الإيطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد وهو من
أرومة واحدة .

وقد تتجاوز المفاخر أنوف السبب ولا تتجاوز المفاخرة بين حدود
لمفاخرة لسانية والمفاخرة الكلامية . ولكنها تتجاوز المفاخرة لمصرية إلى
العداء العصري كله اندفع إلى لتنازع بينها على معمم واحد لا يأتى

لإحداها بغير القصاص عن الأخرى أو بدلاها . ويستحقك العداة بينها على
الرمس إذا تداولت بينها الدخول وانعارات فلا يهملها المعمر يومئذ كما يهملها
النار والانتقام

والعرب قد عاشت في جزيرتها تماس من سطوة حيراتها إلا في أطراف
الحريرة ، حيث لا يبلغ التراع بينهم وبين أولئك الحيرين مبلغ الإبادة
والاستئصال

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان حيراتهم ويحس حيراتهم مكانهم
فوجدت بينهم أسباب المصاهرة ولم توحد بينهم أسباب العداة الدود .
وأعلى التاريخ على العرب وجه المصاهرة بملاء لا احتيار لهم فيه
فقد كان حيرتهم العروس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة
ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيرون حيرتهم العرب شطف العيش وسوء
الطعام والكساء . وكان العرب لا يجهلون خط هاتيك الدول من الجاه
والترف وغرارة الأمواه والأرواد . فإذا فاحروهم تركوا المصاهرة بطعام
أمتع من طعامهم وكساء أنس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم .
ورجعوا إلى مخرهم ندى بملكوته ولا يهابون المقاتلة فيه . وهو فجر
المصاحبة وعراقلة لأحساب والأعراس .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لأحساب عندها لنحسب العريق .
وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقاتلة فيه ، وم يشب
بينهم وبين مفاخرهم من العناصر الأخرى قتال طويل بييدون فيه أو
يبادون . فوقعوا بالمصاهرة دون الدد في الخصومة الدموية ، ونقلت عنهم
وعن مفاخرهم أحاديث مستصرعات في هذا الصدد هي أقرب إلى

مساخرات الأدباء في موقف الدعاية منها إلى الممارعات التي تسفك فيها
الدماء .

إن فخر الروم والفرس سياص الألوان فإن العرب : تلك وحوه
مقشرة ١

وإن فخر الروم والفرس بالحوان الخامل فخر عليهم العرب بالحدود
ويذل الموحود .

وساجلوا وسوجلوا في هذا المحال فاثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة
وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عدا العنصر أو عدا الجنس كما عرفه البيض
والحمري في القارة الأمريكية ، أو كما عرفه الأوربيون والأصلاء في القارة
الأسنالية ، أو كما عرفه السلافيون والنيوتون في أوربا الشرقية ، أو كما عرفه
الإسرائيليون والكمانيون أو عرفه المعربة ولأسان في زمن من الأزمان .
وإذ سمعت الزراية بالعبد على لساب لعربي فأحر شيء يتبادر إلى
الدهن أنهم يقصدون عدا الألوان والأختاس ، أو يخلصون اللون الأسود
بذلك الاردرات أو ذلك العدا .

فقد علت على بعض العرب أنهم مرة نصرت شديداً إلى
السواد ، وكان من سادتهم من وُصف بحلقة اللون وشابه الزنج بالإهد
محشن والبشرة الفاحمة .

بإذا قانوا « العدا » فهم لا يقصدون الرخي ولا يخلصون سواد اللون
بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك أساره وكل حليب يباع
ريشري في الأسواق ، ومهم صغر الوجوه وبيض الوجوه

ويقصدون على الأحص كل إسان مجهول النسب لا ينتمي إلى أصل

من أصولهم المشهورة . . . إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مصخرة لتسب
وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومهاجرة الحاضرة مئات السنين .
فلا يُردري العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه
ويعاديهم ، ولكنه يردري لعة اجتماعية لا لعة عنصرية ، وقد تزول هذه
لعة من حيث لا تزول على العاصر وعداوت الأحاس
وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثرفيه حب
الرنوح السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقارية للعاصمة
لعربية ، وأكبرها انصرة في ذلك الحين فشحريين الريح وانعرب يومئذ
عداء يشبه عداء الأحاس في عصوره الحديثة والقديمة ، ونشت فتنة
الرنج بالبصرة على مثال الفتن الحسية التي شهدتها اليوم و توصف لما في
التواريح ، ولكنها كانت عاشبة عابرة لسب عامر ، فذهب أثرها بعد
دهائها بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الرنج قلة في بوادي الجزيرة
وحواصرها ، وكان امرجل العربي يولد الحورية السوداء ويتبنى وليدها إذا
حب وصنحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان به عند
يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويروجه بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه
أن يصنع ذلك عداء الحس أو نقصاء اللون ، بل يسمعه عرف اجتماعي
توحد له البطائر في كل عرف يدور حول الزواح ، ولو بين الأقرباء
وعليها أن نحترس كثيراً من سبة كن عبد أسود يذكر في أيام العرب
إلى الزنج أو بناء حام كما يعرفون في علم الأحاس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن
يكون خلاسياً من الساميين والحاميين ويغيب على النظر أن بلالا .

صاحب السيرة في هذا الكتاب - كان حامياً حشياً وم يكن رجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يدكروا من أوصاف بلال القطس ولا الشعر الصوفي « المفلقل » اللذين يميزان مملاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أصلك العبيد حالاً قبل الإسلام ، وكنت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظمناً للصعيف لا عداوة بحسب وكرهية للسواد ، فقد كان شأن لعبيد كشأن كل صعلوك وضع السب قليل العصد غير محسوب له حساب في شريعة انشأ والدية ، وكان لعبيد أسوأ حالاً من وضعاء النسب لأنهم لا يسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة فكانوا ضحايا الظلم والتمرقة في المارل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر انظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه يقصر شريعة المساواة . وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من حاييه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة . فحق له أن يلسى دهرته ، وأن يدھر إليه .

الرق في الإسلام

كان الإيمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الإنسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما سميها اليوم .

لأن الإيمان بالروح يعلم الإنسان النبعة وإن « كل نفس بما كسبت رهينة »^(١) وهذا هو أساس التكليف والحقوق

ولأنه يوحى إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله ولتمام شريعته الله .

ولو جاء لإيمان بالروح سابقاً لرق لا مسمع الاعرف به في الأديان لتي تأمر هذه العقيدة ، لأن بيع الإنسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها اسادة والعبد ، فصلا عن الإيمان بتفصيل روح العبد الصالح على روح اسيد الذي يعوره الصلاح

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الإنساني بآلاف السنين ، وكان الرق في تلك لأحقاق الطوا قد امترح نضام الثروة ونظام لمعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أدوق الناس وأخلاقهم في لعصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذب مبلغ ارتفع عن تسخير الآدميين كما يسحر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء هدارت الأديان « الروحية » حون المشكلة ولم تقابها وحهاً لوحه في معظم لأحوال . ولم تكن لتعيد أنفسهم أنة معرف هم عن هذه المرة الى فرصتها عليهم ضرورت الرمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والبصيان وتبديل المصالح والآداب

ومع هدام يكن لمصالحين الدينيين بدء من التوفيق بين عقيدة لروح وإباحة بيع الإنسان ومشراته كما تناع الآلات .

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد يجسده حر بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لسيادتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سيادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وحاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمدته أحبار رومة في المباشير والعظات . وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة السك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح فاستند إلى أقوال رس المسيح كما استند إلى أقوال أرسطو في كتبه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال وم يرق نظام الرق شيئاً يعاب ، فنادم في الناس من يعجز عن كفالة نفسه وعليه أن يعيش في كفالة غيره ، وتبعه تلميذه الباسك لأن الزهد في الحياة يجعل القساعة بأخص المنازل أمراً شائعاً لا غضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرقصون الحياة . وقد راحه الرق هذا المراح فحسه من الحرمان الذي لا يباقي الخطة المثل في آداب المدينة وخصائل بسوك . وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسر الضرورات وتقيد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب المحب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤدي منه ولا يبعد قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ، فإن أناساً من براهمية الهند كانوا يصربون الدله على العبيد

اعرّوهم باسم السودرا ، لأنهم حنّفوا من أسفل أعصاب الآله فلا تبرّحهم
وصمة الدل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على
إعصاب سادته أن يسبل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من
الناس .

وكانت الحصار تلتف من هذه انقسوة بعض التلطيف فتجرى
العدة أحياناً في الأمم المنحصرة بالشفقة على العبيد والحواري ونحوهم
بعض حقوق المساواة فكان المصريون الأقدمون يحيزون معاملة الإماء كما
تعمل الروجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في غير
جريرة ، ويلرمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرئ دمه من
إيذاء العبيد والإساءة إليهم ، ويجمعون هذا الإبرء جواراً لا مناص منه إلى
خطيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأحرء لأنهم
كثيراً ما كانوا يؤدون في مصر عمل الأحرء إن لم يكن عمل العبيد
فجنحت بهم الرعية والقدوة إلى إصاف لأرقاء والأحلاس ، وأنكروا
الإرهاق كما أنكروا انصرب ولايذاء في معاملة الأحرء .

وقان هيروودوت إن الفرس في زمانه كانوا يجمعون عقاب العبد على
المهواة الأولى ، ولكمهم يبيحون السيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أدب
مرة بعد أخرى ، وكانت شريعة الفرس أرهق بالعبد على الحملة من
شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترحص له في الراحة وتكره العدوان
عليه . ورعا سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء
الروحان من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحصاره في المدن الكبيرة وقلة
الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعنهم قد

استمادوا أيضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق . لوصول العشرة بين اليهود وبين شعوب المهرين
ولم نسم أمة قط من إقرار نظام الرق واردة العبيد على اختلاف
عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أم الشمال الأوربية على أم الجنوب كافة في هذه
المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أم الشمال لم
تخرج من نظام الرق بموا في الأخلاق أو تعهدا بالصناعات الإنسانية التي
تُدعى للشماليين في الزمن الأخير . ولكنها حلت من نظام الرق لأن اقتناء
الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحيط بها ، فهي فضيلة
لصناعات لا فضيلة الأخلاق ، وهي مربة البقاع لا مربة عناصر
الشمال .

ومارل الرقيق محروماً من المساواة الإنسانية إلى هذا اليوم في الأمم
الأوربية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجبر قس
العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الأسر أو أعطوا لمواليهم في الكلام .
ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاة إرقاها أو تعدياً عقاباً منصوص
عليه .

تلك كانت حالة الرقيق حملة في القرون الأولى وفي القرون الحديثة .
وقبل ظهور الأسباب « الروحية » وبعد ظهور تلك الأدیان

ومن الأسباب التي تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومع الانحجار بهم في
العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد
التي تستخدم العمال الأحرار في الصناعة وتبدل لهم أحراراً لا يطمع لعبيد
لسود في مثله . وكان اقتناء العبيد يصير أولئك العمال الأحرار في الوقت

الذى عرفوا فيه حقوقهم وهضوا للمطالبة بها ، وساعدتهم على المطالبة بها أصحاب الأموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء

ومهما يكن رأى فى حقيقة هذه الأسس وهى مما يدخل فى التقدير عند بيان فصل الإسلام ومبقة للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها فى مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

هم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذى أمر به الإسلام مصلحة اقتصادية على مرض من هذه العروض ، بل ربما كان من المصلحة ببقاء الرق على نظامه الأول ليعرغ الأرقاء لأعمال المعيشة والسحرة ويعرغ الأحرار لأعمال الجهاد والرياسة .

كذلك لا يقال إن الإسلام تهيأ النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما تهيأتها الأديان الروحية فدارت حول المشكاة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى معظم الأحوال ، وم تأخذ بأيدي العبيد إلا بما كانت تفرضه عليهم من انطاعة وتزجيه إليهم من الغزاء المظورى الدار الآخرة .

فلا يقال إن الإسلام قد مع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الإيمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . . فإن الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق

ولا يقال إن الإسلام قد جاء بآداب الرق برفيق بعد دهاب الحاجة إلى تسخير الأرقاء وتندل لأحوال الاقتصادية فى مجتمعات الشرق والمغرب . . فإن الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة فى البلاد الشرقية والعربية إلى زمن بذكره الأحياء ولا تزال قائمة حتى اليوم فى بعض الأحياء .

فإنما هو يدّ فصول خاص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية .
والى هو بصير صريح في عالم الروح يحسب للدين الإسلامى وحده بين سائر
الأديان

* * *

كان في وسع لدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق في العام العربي وفي
العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك في حجبها
إعصاء معينا سأل عنه ، لأن مسألة ارق لم تبلى يومئذ أن تكون من
المسائل الباطنة التي يؤل السكوت عنها بالإعصاء أو الإدارة
ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تحسر شيئاً لو أنها أهملت
مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين عني بقيص ذلك كانوا
يتجشمون حسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والإماء كلما ساءت حالهم
عند ساداتهم بدخولهم في دين الإسلام . وكان أبو قحافة يمثل الرأي
الخصيف وهو يأخذ على ابنه الصديق بدل المال الكثير في سبيل رهنه من
الصعاف المهاريل يشغلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء
فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق
القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعني بطلب الكمال ولا تحفل
بالمصلحة المادية قل احتمال

وقد تبدل نظام الرق عني يد الإسلام في أوسع نطاق لتبدل أو على
أعمق أساس يبنى عليه كل تبدل في أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية .
لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأحناس والأفوم فحاه أو عني عليه
وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فصل لمسلم على مسلم بغير التقوى .
والتقى إليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً
حشياً والبار لمن عصاني ولو كان شريعاً قرشياً » أو كما قال

وحصر الرق مع هـ في سب واحد من أسباب الاسترقاق ، وهو الأسرى ميادين الحروب ، فلا يمتدح الرجل أو المرأة بالحاسة ولا احتفاف ، ولا يعد من العبد إلا من وقع أسيراً في ميدان القتال إلى أن يفدى نفسه أو يهديه من يهديه

وقد مصت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الإسلامية فظل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة إليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والعداء واحداً ولو يتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام العداء . ولا يقع في العنق نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستسار مقبولين في شرعة المتحاربين

وم تنته عدية الإسلام بمسألة الرق بتصديق نظامه وحصره في هـ لسب اوحيد من أسباب الاسترقاق . بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو من وهو الإعتاق بغير فداء « فَإِنَّمَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْرَارَهَا » (١)

وأوجب على المسلم أن يقبل من الأسير تحميم فديته حتى يستوفيها على ستة ارفق والسباحة « وَالَّذِينَ يَبْتَغُوا الْكِتَابَ مِنَّا مِلْكَتِ ابْنِكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ إِن بِيْدِي آتَاكُمْ » (٢) وقد جعل الإعتاق حصة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرصها على الدين يحالفون بعض أحكم الدين كما فرص الصدقات وإطعام المساكين . وجعل وصية الرفق بهم مفروضة بوصية لرفق بالآباء والأقربين « وَمَالُ الدِّينِ إِحْسَانًا وَبَدَى الْقُرَى وَالنَّامَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْحَارِ دَى الْقُرَى وَغَارِ لَحَبَّ وَالصَّاحِبِ نَاحِبٍ وَابْنِ السَّيْلِ » ملك أبنائكم يا لله لا يغب من كان محالاً محجوراً » (٣)

وكانت وصية النبي للمسلمين قيل وفاته « لصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديث في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الأحاديث « لقد أوصاني حبيبي حريص بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا يستعمل ولا تستخدم » .

وتحاور الإشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة إلى الإشفاق عليهم من الكلمة الحارحة فكان عنه السلام يقول « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل هادي وهاقي وعلامى » .

أما صرب لرفيق بعير تأديب محتمل فهو ذنب كهارته العتق . أو كما قال عليه السلام « من لطم مملوكه فكهارته عتقه » فإذا قتله فهو يقتل به في قول أشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الرواح بالأمة المؤمنة على لرواح بالحرمة المشركة وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأنها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه ريداً وروحه بعقيدة حرة من عائلات بيته . وتبناه وأقام له أسامه من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين . وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سباحة هذه الوصايا على شرط ما فيها من السباحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور . فكان يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الصيام ويقول للمسلمين ! « هم إخوانكم وحوكم جعلهم الله تحت يديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكسوهم ما يلبسهم ، فإن كلفتموهم فأعيتوهم »

وأكرم ما قال في هذا الباب وكله كريم - « بما أما عد تكل
كما يأكل العد وأجلس كما يجلس العبد » .

« * »

هذه لوصايا والمعاملات كانت كلها من فصوص الأدب العلوية الرفيعة
ولم يكن شيء منها قط من إملاء لضرورات لاجتماعية أو المصالح
لاقتصادية . بل هي ولاشت قد تقررب على لرعم من ضرورات
لاجتماع ومصالح الاقتصاد لتي كانت غالبية في تبت لآونة على الحرية
العربية وعلى غيرها من أرحاء العالم المعمور .

وهي لم تتقرر بايذاءة دفعه واحدة في مسنهل الدعوة للإسلامية
ولا تفررت كلها أو بعضها قل إسلام بلال وزملائه من الموالى والإماء
فقد تابت الأحكام الإسلامية في معاملة الرقيق على أنفياهم الحرب بين
لمسلمين والمشركين . وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك
لرقيقين

من اخطأ أن يمال إن أحكام لرقيق هي لتي جلب إلى الإسلام من
دحل فيه من موالى والإماء . أو إسم سيقوا إلى الدحول فيه طلباً لراحة
الحسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير .

إن يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في إقبال بلال وزملائه على
لإسلام فهو على التحقيق أثر لمثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة السبي
عليه السلام لصحبه ومواليه وبكل ضعيف مسم . إليه ولم يكن سرأ
مجهولاً بينهم أن السبي عليه السلام أحسن إلى مولاه ريد بن حارثة فأنساه
ناه وذوبه . وجاهه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه لحرية والعودة إلى

'حضان أهله قاتر صحة النسي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي
طلال وطنه الذي فارقه مكرهاً مند منين .

فهذا المثال الرمع قد كان له ولا ريب أثره النافع في تحبيب لإسلام
ومى الإسلام إلى الأرقاء وعير الأرقاء .

ولكن طلب لإسلام عند أولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد
ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

إنا لا نعرف في تواريخ العقائد الدنية أن 'حد' يقس على الدين
مساومة على الراحة وراحة العيش . ولم يكن طلاب الراحة وراحة
لعيش قط أعوان عقيدته ناشئة في عهده الأول وهي مقدمة على المعامرة
والجهاد تتطلب الصحايا وتفرص على الأتباع ألوان العناء

وفي حانة ملاس ورملائه خاصة لم يكن الإسلام راحة لهم ولا انتقالاً
من جانب الخطر إلى جانب السلامة والأمان . بل كان على نقيض ذلك
انتقالاً من جانب السلامة والأمان إلى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم
دافع . لأن العربي يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر
على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد بأس من لوفاق . ولا حاجة إلى
قتال صريح أو غير صريح لا هدار دم لعبد للملوك المرهون بمشيئة
مولاه . وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعصاته وحرمانه الراحة
وضرورت الحياة .

كذلك لم يكن طلب لإسلام عند هؤلاء لأرقاء طلباً للقلقة من رق
ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاس إلى سيد رحيم . لأن الإسلام في
مبدأ أمره لم يكن ليحررهم من رقة الأسر عند ساداتهم الأقرباء ، ولم

يَكُن العتق جزاء موعوداً لم يغصب سيده لمشرك ويرضى النى عليه السلام بالدخول في دينه . فيما جاء العتق مصادفةً واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الصعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لاشك فيه . ولم تكن السحاة الا وعداً مأمولاً ثم تند تباشيره للعيان .

من اخطأ كما أسلفنا أن يعطل إيمان العبيد والإماء بأحكام الإسلام في معاملة الأرقاء ، أو ما لطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفنا تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الإسلامية برمن طويل ، وإنما كان انعناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه . وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، إن سلمت له الحياة

وما زالت العقائد أكرم على ضمير الإنسان من هذه الممارسات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، ومازل قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي الغية منها ، ونهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأحساد .

وآفة ذلك أنه لم يؤمن إسان قط لعيمة تخصه ولا نعم سواء إنه ليساوم في سوق التجارة على الغيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه إذا آمن بعقيدة من العقائد التي تناون الحياة والموت فلا بد من غاية نعمه ونعم غيره على سواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتحظى مصالح المرد ومساومات الآحاد

وبلال حين آمن بالإسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد . ولكنه قد آمن به على سسة التي ترصى الكرامة الإنسانية لا على سسة المساومة والمصاحقة ، أو هو قد آمن به إساناً كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تعليل إسلامه إنه إعجاب مصر طيبة بنفس عظيمة ، وإنه إيثار للخير الكبير عن الخير الصغير ، وإنه استقامة طبع تهتدى إلى الصراط المستقيم . وإنه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق إلى الرقابة التي تريح الأحساد

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والإماء من كل راحة يرجوها بعد الدخول في الدين الجديد ، أبداً ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرضاء في أحل قريب أو بعيد

وقد عبرت القرون عن وصايا الإسلام بالرفيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وحاصلها من حالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والأديان . ولكنها ، سواء روعت أو حوفت . قد كانت كساً عمياً به أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الإنسان ، وقد بقي لها هذا الأثر إلى أن بطل الأسر وبطل الرق شتى درائعه ودواعيه ، وارتفعت لبحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الأزمان .

فبعد وصايا الإسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه أوروبا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال نزل بمصر فرح من الأسرى اليونان يريدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة ودوى الثراء في القاهرة والإسكندرية ، ثم عقد الصلح وقصت شروطه برد الأسرى إلى بلادهم واعتناق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال دونه ، فأثروا البقاء جميعاً في

البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون
 ذلك ، كما جاء في بيان المدبوح الإبحري الذي يبط به تنفيذ تلك
 الشروط .

ومهما يقل القاتلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا يسكر في
 هذا المقام ولا ينسى أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يعلنون
 نصية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم لمسلمين لو
 كانت وصايا الإسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .
 فابعثنا الكبري قد تتكلم بلسان الفصائل المثالية في شأنا الأولى ،
 وقد يشدها المزمعون بها حياً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكها
 لا تلبث بعد ذلك أن تورن بالميران وتشحص للعبان .

نشأة بلال

اتفقت الأقوال على أن بلالا كان من أبناء الحشّة المولدين ،
وجاء في وصفه أنه رضى الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طويلاً
أجماً أى فيه إحصاء كثير الشعر خفيف العارضين »
وهى أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود واسامييين ، وقد
كانو كثيرين بين الحشّة وايمى من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق
عليها أوصاف الرنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع
خلوصه من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من
السلالين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيئاً على عادة اسود ،
ففى الثقاب هذا الرعم وأكد بقيهم أنه كان يقيم الأدان وفيه السين
والصاد .

ويختلف فى مواده فبقاا إنه ولد فى مكة ويقال إنه ولد فى السراة ،
وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحشّة ، ولأن بلالا
رضى الله عنه رجع إليها حين فكر فى الزواج .
وأرجح الأقوال فى سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بسحو ثلاث
وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ اختلافها بينها زهاء عشر
سنين .

وأبوه وأمه معروفان ؟ أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان سز
بابن السوداء إذا غصب منه عاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو
إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة
ويحسب بعض الإبريخ الدين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات
لتوحيد كما كان يفهمه المتدبرون والمتديبات بالمسيحية من أبناء الحشّة
وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام

برسالة التوحيد ، وهو حسان حنتر ولكنه بعيد ، لأن الأحباش في ذلك
الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون
برسالة التوحيد الحمديّة ذلك الترحيب

ويذكر نلال أنح يسمى خالداً ويكنى بأبي رويحه ، والأغلب في
الروايات المختلفة أنه كان أحاه في الإسلام على سمة المؤاخاة بين الصحابة
التي سنّها عليه السلام ، وقبل إن له أختاً تسمى عمرة هي مولاة عمر بن
عبد الله مولى عمرة المحدث لمصرى ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما روى من
أخباره .

وكانت نشأة نلال ممكنة في بي حمص من بطون قريش المشهورة
وفي بي حمص هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد ثلاثة المختارين من مؤدبي
البي عليه السلام ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرون أم كلثوم ولا يُدرى
أمن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بي حمص أم كان
لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والعناء ، وإما المعروف عن القوم أنهم
كانوا أصحاب الأزماء والأيسار في الجاهلية ونهم كانوا من حرب عبد
الدارحين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بي عبد
مناف خلاف قديم .

وإذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في نموه لعادة
الجاهلية وإقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعهم بين القوم على سرار
الأزماء والأيسار وما يلزمها أحياناً من الش والتليس ، وأن القوم عيهم
مخافة عن الرحمة والزعمة الروحية باعدت بينهم وبين حلائق
عبد مناف - حد النبي عليه السلام - من انقطعية الأولى بين الأحرار
القرشية . وخلقاً بأمثال هؤلاء لا يالفهم الضعفاء

ولم يعزم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني حمح هؤلاء . فقبل إبه كان عبد عقلة من عقائلهم . وقيل إبه كان عبد بناء لأبي جهن . وقيل إبه كان عبد أمة من خلف وبعض ولده . وانعقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو اندى استغفه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم إياه لدخوله في الاسلام فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل سبع أواق وقيل يتسع أواق . ورعوا أن سيده أراد أن يعص الصفة على لصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا وقية لبعاك ! فقال له الصديق لو أبيت إلا مائة لا اشتريته . ! ! ويرغم بعض الرواة أن لصديق استدله بعلام له حلد من عبيده . وهي رواية يشك فيها كثيراً لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستغده رجلاً غيره . وأدى من ذلك وأشه خلائق الصديق رضى الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام . وأنه عليه السلام عرض عليه لشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله . فقال له لقد أعففته يارسوب الله . وعمن بعد ذلك حارماً له لم نخأزاً لبني ومؤدماً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد وبكته لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصية ولا الخوف من الأثر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنف ومساءة . واشتدوا في ذلك حتى هموا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القاتل على هذه الية ليفرقوا دمه الركي بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعدوتها فأشقى النبي الكريم على صحبه وأذن هم في اهجره قلبه . وكان بلال ممن هاجر إلى

المدينة على إيثار منه للبقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت «أوداً أرض الله من الحمى» ولكنها رُحِمَ بهم من حيرة المشركين في مكة . وبرز الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى - ولعلها الملائيا كما رجحنا في غير هذا الكتاب - فكان بلال إذا تركه الحمى اضطجع بفناء لبيت لم رفع عقيرته ينرم بصوته الجمهورى قائلاً :

ألا ليت شعري هل أبى ليلة

بفخ وحولي إذ خر وجليل

وهل أردن يوماً مباءة مجنة

وهل يبدون لي شامة وطفيل

وهي مواضع ومنازل بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمنازل قسوة في جاهليته وتعدياً في إسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة إليه أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لرم بلال النبي والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنيته حطاً الأذان الأول فكان لبلال حظ السق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حصرة النبي حتى قبض عليه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه في الإسلام ولخهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه في الإسلام هو أرجح الميزتين التي استحق بها التفضيل والتكريم

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يارسول الله . فإذا خرج رسول الله قرأه بلال ابتداء في الإقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الإقامة قليلا . أو ربما أخرها قليلا ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت . وربما ترمم بعض الشعر وهو مساعد للأذان رثاء لحاله وطلبا للتوبة والرحمة من الله . ومن ذلك أنه سُمع وهو يقول

ما لبلال ثكلته أمه وابتل من تضح دم جين

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العترة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العترة إحدى عترات ثلاث أهداها نجاشي الحبشة إلى النبي عليه السلام . فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العترة بين يديه أيام حياته . فكان يحملها في العبدن وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقبل إنه كان يمشي بها بين يدي الصديق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمرو وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العترة التي احتفظ بها الولاة يمشي بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آوى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فأخى بين بلال وحالد أبي ربيعة الخثعمي ، وقبل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيدة بن الحراح . وهو على ما يظهر لبس في الأسماء . والأول هو الأرجح لقاء الصنة بين بلال وأبي ربيعة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه
أهل لأصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له :
يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش
فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء ، وري عهد إلي في تهريق ما يفضل من
المال عنده وقال له : انظر حتى تريحني منه . هيري بلال القدوة في سيده
ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق
الحياة .

وقد أرى النبي عليه السلام أنه جمع دف يعني بلال بين يديه في
لجنة ، فسأله بعد الصلاة . يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته
عندك في الإسلام منعه ، فإني سمعت يله دف بعليث بين يدي في
الحمة . فلم يذكر بلال رده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا
أمانته وتسليمه . بل قال : « ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي
من أني لا تطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت
بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين صطفاء لمرئي الكبير
للرحل تشر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يشر فيه الصنيع الحميل ،
ويُحب للطف محضه كما يحب لخلوص طويته وعصائنه نفسه ، وقد كان
كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب
والسلم والإقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذ حارساً يحميه
كما يحمي الحراس الأمراء والباطن ، وإنما كان يستصحبه في إقامته
وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق
مودته ووفائه ، وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تدوم منه حيث يريد

وحيث لا يريد ، فإذا أشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تطليه
بشباب الوشي وانتهى لا يسأله ذلك ، وإذا تهبأوا للقتال صرب به قبة من
أدم يرقب لموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى
الأمر منه ، فلم يفرقها موقف ضلك ولا موقف حطر ، ولم ينقص يوم إلا
جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومحسن العصاة والحدث ، مام يكن في
غية قصيرة لشأن من شئون الدين الذي لم يكن له شأن سواه

ولما فتحت مكة أمره إلى عيه السلام أن يقيم الأذان على ظهر
الكعبة فأقامه والمشركون وحرم يعطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك
اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة
هم عثمان بن صخرة صاحب مفاتيحها وسامة بن زيد ابن أبي العيثي ،
وبلال .

وما زال يصحب النبي محمداً حتى قصص عليه السلام ، فأقام الأذان
بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإبقاء ، لأنه
كان إذا قال في الأذان : أشهد أن محمداً رسول الله بكى وبكى معه
سامعوه ، فلم يطب به المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعد
لا يصحبه ولا يراه ، وثر الاعترا ب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وأثر
الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة السنين ، وانفقت أرجح
الأقوال على أنه استعفى ، يصدق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى
الشام مع المجاهدين فأذن به بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك
لاعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى صيغة صغيرة بجوار دمشق يزرعها
ويعيش من عملها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للحليفة

الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدى لمحاسة
خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة .

وذكرته الوفاة في نحو السبعين لأنه كان ترب الصديق على أرجح
الآقوال - وقيل إنه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة
أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبي
وصحبه كما كان يقول في ساعات الاختصار ، فكانت زوجته تعون إلى
جانحه وتصبح صبيحة الولد ! واحزناته . فيجيبها في كل مرة بل واهرحاه
غداً نلتى الأحنة، محملاً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وفيه رضى الله عنه
معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد
الذى اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن
لأدان تلك السنين الطوال بكى عمرو وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى
انخضلت اللحى البيض واصطربت الأنفاس التى لا تضطرب في مقام
الروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمى يطلق من حنجرة من
اللحم والدم لما احتلجوا تلك الخلجة ولاتولاهم ماتولاهم يومئذ من
الوحد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوصي الغيب حين أصعوا إليه ، وقام في
أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه
معه آونة من الزمان . فهم إذن في عليين أو قريب من عليين ، وهم إذن
على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في
جواره ، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي

فترجف من الوجد وتنكسر الأحساد بالبكاء معلوبة في عالم الأرواح
ووافق السماء .

رحم الله بلالا إبه كان داعي السماء ليرفع أبهاء الأرض بدعوتها . وقد
رفعهم في ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ، إلى الحصرة التي ترتجف فيها
الأحساد لأنها غريبة في ذلك الحوار

* * *

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال
حيث كان . فمن سيرة بلال التوحيدة نعلم أنه كان يأوي إلى كهالة النبي في
حياته البتية كما كان يأوي إليه في حياته الدنيوية . وأن أحداً من الصحابة
لم يكر يدكرهم بالنبي عليه السلام كما كان يدكرهم به مؤذنه وصاحبه
ووليّه طول حياته حيث يرويه أو حيث يستمعون إليه ، وقد شغل النبي
بمعيشته في بيته كما شغل بعقده ورقه وتقويم دينه ، ففي روايات مختلفة أنه
تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفي إحدى هذه الروايات « إن نبي أبي
الكثير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : روح أحتنا فلانا . فقال لهم .
أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله أنكح أحتنا
فلانا فقال لهم . أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم أين أنتم
عن بلال ؟ أين أنتم عنه رحل من أهل الجنة . فأبكموه »

واظهار أنه تزوج غير مرة وأنه مات بعير عقب ، فقد جاء في رواية
فتادة أنه تزوج أعرابيه من بني رهرة ، وجاء في رواية أخرى أن له زوجة
تدعى هداً الحولانية ، وهي من خولان اليمن لآمن حولان الشام ، لأنها
كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن إسحاق فيمن حصر بداراً فقال . ويلال مولى أبنى بكر .
مولد من مولدى بنى جمع اشتراه أبو بكر من أمية بن حلف وهو بلال بن
رباح لاعقب له .

نعم ولكنه أعقب الميرث الذى يتحصن بالأدان فى كل مكان . . . فلا
يساه من يسمع الأدان ويرجع به إلى أود من نادى به قبل أحيال
وأحيال

إسلام بـلال .

كل إيمان فهو شيء يتجاوز الفرد الواحد ولا يحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذي يحصر فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في ربه أو بعد ربه ، وليس بإيمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يصحى بالمصلحة ل سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها وقد بضحي الإنسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا يبنى أن الإيمان شيء أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الإنسان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان . قال الإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفي أن يصحى الإنسان بمصالحهم في سبيل إيمانهم ولو في بعض الأحيان لتقرير هذه الحقيقة من وراء الحد والاختلاف لأنهم أن يسى الرجل إيمانه في سبيل مصلحته فنقول إن مصلحة عزيزة عليه وإن الإيمان ضعيف في نفسه .

ولكن لا نفهم أن يسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدن مختلفان ، وأن المصلحة عرت أو هانت هي شيء غير الإيمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فيسبى من أجلها مصالحه الدنيوية فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالعيش ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس - كأتباع كارل ماركس - يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان
والمذاهب والآداب وكل ما يحبك بضمير الإنسان إن هي إلا صورة من
حياته المادية التي لا بعث بعدها ولا مح للروح فيها ، ومنهم مع
ذلك من يدخل السجن ويتعرض للشيء ويجازف بالحياة ويفقد في سبيل
إيمانه بمعتقداته وإنكاره لمعتقد الآخرين . . وليس بالمعقول أن يفقد
الإنسان الحياة لأنه يطمح إلى لطعام الهنيء والعيش الرغيد ، وليس
بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من يعم بالطعام الهنيء
والعيش الرغيد وهو تحت التراب فإذا هو أقدم على فقد الحياة فمسألة
عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة يارء مصلحة
صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه يارء قوة تمضي به حيث شاءت ولا
يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة
ووصع الأرقام بازاء الأرقام .

وقد شوهدت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تخصي ، ولكن لم
تشاهد قط عقيدة تقبل التصحبة بالحياة وهي حلو من إيمان بحق وثورة
على باطل ، ولم نشاهد قط عقيدة تقبل التصحبة بالحياة وهي قائمة على
منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزها إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة
فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين - فهي إذن
مسألة حق سابق لوجود المذموم وسابق لوجود الأفراد

فلا إيمان أنداء هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من
الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودّة والإيمان غير موجود . وبكسر منى وحدتنا معاً فيها شيطان وليس
شيء واحد . ويطلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا في
الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه
الحقيقة في الأدهان .

وقد عينا بأن نين مزايا الإسلام في معاملة الأرقاء . ولكننا عينا مع
ذلك بأن نين حقيقة أخرى لابد من تبيينها في هذا المقام ، وهي أن
المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الأرقاء في الإسلام ، وإنما هو
« الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تخليه على الباطل ، ولولتي
الأرقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين بلعييد والإماء .
كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك السبعة الأبرار : خديجة وأبو بكر
وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال رفقاد .

قال رواية صدر الإسلام : أم أبو بكر فتنه الله بقوته وكذلك
من كان هم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فاحدهم المشركون فالبسوهم
أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد راتاهم
على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام إلا بلالا فإنه هابت
عنه نفسه في الله وهاب على قومه فأعطوه النسيان فحجروا يصوعون
به في شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يريد .

وجاء في طبقات ابن سعد بأسناده ما فخرناه . إنه كان من
المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعدب حين أسلم ليرجع عن دينه فما
عظاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعدبه أمية بن حنف . . .
وكانوا إذا اشتدوا عليه في العذاب قال أحد . أحد فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لسائى لا يحسه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأنى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء في الطبقات أن أبا جهل حاءهم بالعشى فجعل يشتم محبة ويرفث ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الإسلام . وهانت على بلال نفسه في الله حتى موه فجعلوا في عنقه حبالا ثم أمروا صبياهم أن يشتدوا به بين أحشيتى مكة فلم يردهم في كسوته التي كان يرددها ولا يمل من رددادها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرماح الكاوية في وقدة المحير لم يصعون لخرابة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد .

• • •

هذه صورة بلال رضى الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود - فصلا عن تحقيق الوعود في معاملة المستضعفين من العبيد والامراء ، لأن أحكام الإسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين

وإن آخر طى يحطر على دل المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلة أنه يرى رجلا وارثا بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها . لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الإسلام شيئاً يذكر إى حب ذلك العذاب الأليم الذى كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسر المعاملة همه من الدين الحديدا لا ينظر حتى يسلم سادته فبسطع عندهم فى تلك المعاملة الحسنة ، أو لا يضر حتى يتمتع حاسب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئآت وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الحديدا بين هر من المعلولين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيدا .

وأعجب شيء أن يحصر لعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيدا والأحرار قآمن به العبيدا . ولا يخطر له أن هذه لسوية تعصب الأحرار فتحميهم الألفة أن يدخلوه ، وقد دخله الأحرار كما دخله العبيدا فى مبدأ التشير بالدين الحديدا .

فإن كانت للال وصهيب وأمثالها مصلحة فى الإيمان بذلك الدين لأنه سوى بينهم وبين أبى بكر وحمزة وعثمان وعلى والماروق ها مصلحة هؤلاء فى الروب بأقدارهم إلى حيث يشاؤون بعبيدهم المستصعبين وهم أولئك دوو الحميه لى تشمخ رؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يصارعهم فى العرة والجاه ا

فمن الحق وسكيتة فى النفوس فلسحت فى تعيين الإيمان بكل عقيدة حديدا وكل مصلحة إنسانية فوق مصالح لأفراد . وإما بيوحد لإيمان حين بيوحد للنفس حق محبوب وباطل مكروه . ولو صاعت فى سبل حب الحق وكراهة الباطل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعفت الحياة بغير أمل فى الحراء

فلا انعيد آمو لأن لإسلام سوى بينهم وبين لأحرار ولا الأحرار

تمو لأن الاسلام سوى بينهم وبين العبد لأن قصارى هذه النسوة
أنها مصلحة لهريق من اساس . ومارا الإيمان والمصلحة شيئين مختلفين
ومعدين متباينين . فالمصلحة شيء تختاره حياة الفرد وقد تحتويه حصة
قليلة من حياته . أما الإيمان فهو أبدى شيء يتجاوز لفرد الواحد وقد
يبدل في سبيله المصلحة والحياة .

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأدبار لكتابة أدس يؤمنون
بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب تصرف بين أقدارهم وأقدار سادتهم في
الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن بدلات واعرى وغيرها من أرباب الدهية
وكان لا ير حوصمة منها ولا نسويه بيده وبين ساداته المتحجرين عليه وعلى
سائر الصنفاء ؟

فلما ساء طنه هذه الأشنات من الأرباب كان حس طنه بالآله
« الأحد » هو لذى سوا طنه يدين ادهلية ، وكانت وحدانية لله لعلى
الأعلى هي التي تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعيبه على شدته وهو يتدلى
من أم العذاب بين يدي سادته القساة .

فكانت الوحدة هي الكلمة الواحدة التي لخص بها فصل الدين
الحديد على الدين المهجور . وقد ألهم هذا التحريض انصايق الروح
إهام الإيمان الذى يهذى العقل إلى موقع الهدى من أوحى طريق ، فلو أنه
كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » حار أن يقال أن في الآلهة
الوثنية من يتصف بالرحمة . أو حار أن يقال إن الرحمة بذرت إليه في
تلك اللحظة لأنه يشنكى القسوة والعذاب ولكنه لما ردد كلمة

الوحدانية وم يردد غيرها كان قد هدى الى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى الى لصفة الوحيدة التي تجعل الايمان يماناً بالحق ولا تجعله انظاراً لرحمة أو عهوان أو حراء

ولا تريد أن تقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان . ولا أن تقول إن المؤمن لا يخطر له مصلحة بحال وإها لا شأن لها التة في تحول العقائد والعبادات . فان المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قول دين حديد ، وقد تنبه الأذهان الى الإصحاء الذي يتبعه الازبياح والتصديق . وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس . فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير انعم .

ولكن الذي يقويه إن المصلحة غير الايمان وإها قد يهترقان كما يتفقان . وبو كانت المصلحة هي الايمان لو حدثت المصلحة ولم تكن هنالك حاجة الى وجود إيمان على الاطلاق . كنى أن يسعى الانسان الى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلاً إليها ، وكنى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها الى الشعور الذي يحجب إليه الموت . فأما وقد وحد الايمان في كل رسم من الأزمان ، ووحد مع انظار الحراء ومع اليأس من كل حراء . فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة في إيمانه ، فإنه يصم الى المصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالايمن

كلا . ليست صورة بلال عى رمال السطحاء الموقدة في قبض لصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة . لأن الخلاص هو كل ما يعيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد الأحد » بصورة الرجل الذي

دخل الدين الحديد وهو يحمل الفارق الصحيح بين الدينيين . ولا يعرف
للدين الحديد فصلاً إلا الرحمة بالعيد في الأرض أو في السماء .

لقد كادوا يقتلوه وهو لا يحبهم إلى تعظيم آلهم ولا يؤثر السكوت .
ولعلهم لم يبقوا عليه إلا لشحهم بئمه أن يصيب عليهم إن قتلوه . ولعل
أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عذراء لا تصلح للبيع ولا للمبادنة .
ولم يقتل بلالاً ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عامنون يباعون
ويشترون .. ولكنهم لاشك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يشؤا منه ولم يحدوا
من المشركين من يشره وهو صائى عن دين الخاهية . فلم يكن إسلامه
سبيل رفق ولا تخفيفاً من عناء . بل كان سبيل عذاب ومخاطرة
بالراحة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبلوا ما ساءهم المشركون أن
يسرو به . ومهم عمار بن ياسر لنعلم أنه كان عذاباً يعوق طاقة
الإنسان .

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه . ولكنه ضاق - في صباه
بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين . وقد شهد
الغاري في عهد النبي وعهود الخلفاء . وكان عليه السلام يقول : إن
عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه . ومعه قذوة للمسلمين في الهداية ميوصيهم
أن يقتلوا بأبي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار وهو أيضاً لم يتخذه إلى

الإيمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والنعمة مع معارضة وينضوي إلى حساب على لموت تحت لوائه في صهي . وما كان على لو انتصر بمعرف عليه مالا ولا بمطعمه في عيش أرعد من عيشه . وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عقريه للإيمان . لأن إيمانه كان ذلك الإيمان الخالص الذي يوصف بأنه الإيمان حياً للإيمان لا حياً بما وراءه من رضى أوحراء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد . فيقبل على لموت كراهة للبقاء في دينا لا تواتيه على اعتقده وليس بقل على لموت طلباً للجنة كما يقاب . فإن من المؤمنين بالعقائد لمادية كما أسلفنا من بموت في سبيلها ولا أمل به في حياة بعد الحياة . وإن الحلة الحية إلى كل إنسان يصدق بها فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الحلة التي يحياها ذات . وإنما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو قوة العقيدة . وهي قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في إنسان

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسمى إلى لقاءه عشرات امرات منذ غرا مع انشئ إلى أن ينف على التسعين ومات تحت لواء على معركة صهي . ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذي صبر عليه « بلال » وظل صبراً عليه بغير أمل في الخلاص القريب ،

وكل طمع في حسن لمعاملة يزود ويطل في مثل ذلك العذاب الذي صاقت به طاقة عمار .

نعم يزول ويطل لولا إيمان يهون معه لموت ويهون معه العذاب ،
ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار إلى دخول الدين الجديد ،
ولكن لدى يفهم من ذلك - أو ينبغي أن يفهم منه - أن المصلحة لم
تكر عبقة بين العبيد وبين الأصحاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار
كانت لهم مصالح تحجبهم عن حمال تلك الدعوة وعن التأمل في صدقها
وبطلان ما هم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً
عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي
أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت
العقيدة على الإطلاق ، ولوجدت المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير
اعتقاد على الإطلاق في شيء من الأشياء .

لقد كانت في نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص ، فصدق النبي
الكريم لأنه كان أهلاً لولائه وإخلاصه ، وكان خبيراً أن يطمئن إليه
ويشعر بالسكينة في الإصغاء إلى قوله والافتداء بعمله .

وسمع رجلاً ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو في
الدوازة العليا من بني هاشم أو في الدوازة العليا من قبائل العرب
جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل
الحبيب السيب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الأول على صدق
العقيدة . ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحبيب السيب
لما أسرع بلال إلى تصديقه والجنوح إليه .

فأما وقد جنتح إليه وآمن بدعوته فالسألة بعد ذلك لن تكون مسألة
موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكيما أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بعير الإيمان . ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنح إليه ومزجه بقلبه وصميره . فصبر في أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان . . . وقد صبر على بلاء الحسد لأنه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما نصبر إليه الأحلام ويتعلق به الرحاء فبلغ من تعظيمه أنه كان بدأ لأعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعنتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوماً أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لها حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعينة القوم وعرض أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أركا ليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل يحكم منه وأدى إلى الإنصاف فقال لهم أيها القوم ! إني والله أرى الذي في وحوهكم إن كنتم عضاباً قاعضوا على أنفسكم دُعي القوم - إلى الإسلام - ودعيتهم فأسرعوا ونطأتم فكيف بكم إذا دعو يوم القيامة وتركتم ! .

* * *

جمال هذا الأدب هو الذي يهون في سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذي يوحى العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الأحرار وأصعوا

إليه وصدقوه ونقد تحت أداء العقيدة حين هم الحب والإصغاء
والنصيحة . فما يرال من الإنسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس
بيهم وبين الفداء إلا قضية يحسها ودع بصدقوه وما يكونون يوماً
أخرج إلى الإيمان منهم يوم تعر عليهم القضية التي تحب ولداعى الذى
يصدق فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها ليس أمامهم محبص من
أحدى عايات ثلاث : ماء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان بوجود
حيث كان .

صفات بلال

كان بلال رجلاً على سواء العطرة

وآية ذلك أنه كان كما يسعى أن يكون كل رجل قوى انقطع من بي جلده وفي مثل شدة . يمر بالحوادث التي مر بها ويمارس التحارب التي مارسها .

وقد تقدم في صفات الموالى الأفريقيين أنهم يقومون بالإساءة على لسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بني حلدته وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ في قسوته ولا بالمكابر في عناده إنما كان نقسوته عذراً أو سبباً ، وكان لعباده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب

قال ابن الرومي :

إذا الأرض أدت ريع ما أنت رارع

من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها

بل العيب أن تذاق ديا فلا تقضي

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون ثراً للإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسفوا له بالمساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا هم ينحلونه صماتهم ويعيونهم بمساءتهم ، وينكرون صحبتهم كما يكره أصحابهم . ومن ذلك أن مشرباً أراد أن يسوم فيه سيده فقبل أن يهونها حيره وحرم ثمرته ، فقالت له متعجبة . وما تصنع به؟ إنه

خبيث . . . وانه ! إلى آخر ما وصفت به سحطه على سوء المعاملة
وسوء العشرة

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب
صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن حث وكنود ، وإنما هو بشرة
سوداء على طبع صاف يرى الناس وحوه أعمالهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية ثم يوافق انطاعة وصدق الولاء ، فكان
إيمانه القوى بالله ، وانخلاصة المحكى لرسول الله ، هما الدرورة التي ترتقى
إليها محاسن بني حنبله ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولأه
تابع لمتبوع أو ولأه معجب من يستحق الإعجاب

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا
والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرحق دياه ولا بعد موته
إلا أن يأوى إلى جواره ويسم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت مرآة تشر وتغلبها النكة في قوس حياتها
فتصيح : واحزنانه .

وكان هو بحبيها في سكرات الموت . بل وافرحته ! غداً تلقى
الأحة . غداً تلقى الأحة ، محمداً وصحه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا
الكون العظيم إلا وهي في حاسر منها علاقة محمد رسول الله ومحمد
سيده ومولاه

وتلك الروحة الوفية النارة كانت ترصيه في معظم حالاتها وكانت
لا تخليه من مأكمة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين
الروحين وفي كل صلة بين بسابين ، فكان يقلل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن نمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده :
وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . واستعظمت يوماً ما يحدثها
به عن رسول الله فإذا به يثور ويعصب ويهم بانقضها ثم يدع امره
محققاً مقطوعاً حتى يبعثه الرسول . فيمنح ما به من تغير حال ويعلم سره
فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لروجه مطمئناً في صدقه
ويذهب معه إلى بيته فيقول بدماركة : ما حدثت عني بلال فقد
صدق بلال لا يكذب ، فلا تعصبى بلالاً

فإذا المولى الأمين هانئ قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم
ولا يشكون في رويته ونقله ويروون عنه رواية اليقين في شئون الصلاة
والصيام .

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس
وتشيع عحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد
السحور والإفطار يقولون : إنا لرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما يرى
انشمس ذهب كنها بعد ، فإذا دعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه
ترك رسول الله يشعر بالقول ما قال بلال ، وليس للشئ في ضوء النهار
مكان .

وقد لرمت بلالاً عادة الصدق في كل كلام يلغيه المسلمين عن النبي
أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشئون وخاصتها ، فما رجاه أخوه في
الإسلام - أبو رويحة - أن يسمر له في رواجه عند قوم من أهل اليمن
لم يرد على أن قال : أنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة وهو امرؤ

سوء في الخلق والدين ، فإن شئتم أن تروحوه فزوجه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا . . . »

فزوجوه فكان حسبهم عنده أن يقل الوساطة ولا يرده أو يمره عليهم
أوصافه !

وقد كان من ولاته لأبي رويحه هذا أن صم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الماروق دواوين الصحابة سأله : إن من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبي رويحه ، لا أفارقه أبداً بالأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبينه .

وذلك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوة لعمر عنده من فصل الولاء لرسول الله . وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

• • •

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة . وهو هو قائد الرحال الخبير بمناقب النفوس فأقامه في موضع الثقة واثتمه على ما من المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العترة يحمها بين يديه أيام العبد والاستسقاء ، ولم يعرف أحد من الصحابة لآرمة عليه السلام كما لازم هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبعة والستار من لمحات الحجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التي فلما كان يركبها سواء عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

علمان بن طلحة صاحب معانيها وأسامة بن زيد مولاها ، وبلال
ودامت هذه الصلحة حتى فُصص عليه السلام وحتى دفن في ثراه .
فكان بلال هو الذي ذكر واحب الختان المذكورين في ذلك الموقف الأثم ،
فحمل القرية ودار حول ذلك لثرى الشريف يئله بالداء

* * *

وعنى هذا الختان في طويته مولا العظم كان لرحل صمير يعرف
الإصرار على لرأى كأشد ما عرف مؤمن بعقيدته وافر من ديلة
وربما كان في الإصرار شيء من عناد بني حلدته أساء الخشنة وأساء
السلالة السوداء . إلا أن العناد حصله ذات لونين أحدهما بحمد ويقيم
وثانيهما يذم ويضير .

فالعناد أحد لونه ثبات عني انصواب ولعقيدة ، وفي لونه الآخر ثبات
عنى الخطأ والهو ، ولم يعرف من العناد في تاريخ بلال إلا أجمل اللوين
وأشبهها بقوة الأمر وخلاتق الأسماء

من ذلك عناده لمشركين حين ساموه لعذاب يفتوه عن دينه
ويكرهوه على سب نبيه كما تقدم في وصف إسلامه ، ومنه إصراره على
ترك الأدان لغيره حين وقرى نفسه أن أدانه بعد رسول الله ففص في
الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى اشام
حين سأله خديجة النقاء فقال له في رواية مشهورة « إن كسب أعتقني
لمسك فأحبسني ، وإن كسب أعتقني لله عروحن فدرني أذهب إلى الله
عروحل » وأبى إلا أن يمضى حيث أورد

ولاشك أن الرحمة بالاعداء أمر لا يسطر من رحل طال عهده وعهد
قومه وآبائه وأجدده بعسوه لصعاة وعذاب اللؤماء ، هذه رحمة رحل

كهدا لم أحسبوا إليه وسالموه حتى مفهد لا عربة فيه أما الحق أندى
يستعرب منه حقاً فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمة خاصة من فرط
في الإساءة إليه

وهذا لا يستغرب ما روى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد
وقعة بدر مع المشركين ومهم أظلم الناس له وأقساهم عليه .
فلما افتتح النبي حصن القموص بخيبر حتى له بصفية بنت صاحب
الحصن وقريبة لها دون سبها فأرسلها عليه اسلام مع بلال إلى رحله
فمر بها بلال على القتلى من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً
ولطمت على وجهها وعلم انسى عما صرع بها له عاتياً أرعت منك
الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على لقتى ؟ فكان عذر
بلال أندى اعتذر به حواء : يا رسول الله ما طست أنك تكره ذلك
وأحييت أن ترى مصارع قومها !

وما في وقعة بدر فقد كان عذره أرواح وأسلم من عذره في وقعة
خيبر

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحة عبد الرحمن بن
عوف بقودهما كما يقاد الأسرى ، وقد كان أشد الناس أيداء للمستضعفين
من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسمين نصياً من ذلك الأيداء
اللثيم لما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله رأس
الكمر أمية من ضعف . لا نجوت إن يحا ولم يعن عنه دفاع عبد
الرحمن بن عوف بل جعل بلال بهم يقتله ويصيح . لا نجوت إن يحا
لا نجوت إن يحا حتى اجتمع حوهم خلق كثير ، وصرب أحدهم اس
أمية فوق صريعاً فاذا بأمية يصيح من الفرع صيحة لم يسمع مثلاً . قال

عبد الرحمن بن عوف : ابع نفسك ولا تحاء بك ! فوالله ما أعنى عليك شيئاً . ولكن المقاتلين هبوا بها بأسيا فهم قتل أن يخص له سبيل إلى الفرار

وقد يريد في وصوح العذر لبلال من هذه القصة أن مية هذا كان من أحق الناس بالبعص وقلة الرحمة لأنه كان يعدب المستضعفين تعذب الحمار الشيم لا تعذب الساحط العبور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يمرض حياته بمعامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين فما هو إلا أن سمع ببدير البسي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائضه وراح يسأل عن المكان الذي توعدده بالقتل فيه ، فصرح قومه بالقيود عن القتال وأنه لا يجرح حرب المسلمين في عروهم تلك وهو مقصود بذلك الوعد ، ولم يتحرك للحروح حتى جاءه أبو جهل بن الملاء عجمرة يبحره هـ ، وقال له : تحمر يا هذا فإما أنت من النساء

ولما شبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طبيعة اساكصين عن لعتار ، ثم قتل ابنه فكنت صبيحته عليه صبيحة فرع لا تسمع في ميدان . فإما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على لصعيف وهو قس في عقر داره . ولم يكن من بدد العقدة التي يعار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أحلها غير وكل ولا هيات وليس حق من مثل هذا بمعصاء المنتقم في ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً في هيبة عصه عليه أنه يعلم بدار نسي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنا بعد قتله فقال :

هنيئاً رادك الرحمن حياً لقد أدركت نأرك يا بلال

وفي غير هذه اهيبة التي تذكرك أحلم الناس في موطن النعمة وحومة

حرب م تكن شدة بلال غير حميه الرجل العطري التي تدوميه انفسه
وهو لا يعيها . وكان في حملة أحواله مثلاً للحنف الوديع والطية الرصية
وحلاوة النفس والانصاع . فكان يحججه أن يسمع الناس يحمدون
بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أحواء الصحابة لثباته وصبره .
فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً » وكانت قلبه دعوه
نصحة من نصحات تلك الطيبة الرصية . فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم
الناس ما يحفلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة
وكثرة سائسه والواقفين بصيق ما يرويه . ولم يرد في رجاره عن النبي على
ما يعيه من إقامة الصلاة ولأداء أو مواعد الإفطار والصيام

° ° °

وكان بلال من قوم في حلقين آخرين يعرفان في بعضهم، قدماء أو
محدثين . وهما فرسة النظر وحب الراحة أو انصيق بالجهد الشديد .
أرسه النبي عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له الله الذي أمره
المسلمون . فلم يفته وهو يقص بياه على النبي أن يقول : والله ما رأيت
واحداً منها مسعراً إلى صاحبه ! فقار النبي ! ذاك حماء الأعراب
ووكل إليه النبي وهو مقل إلى وادي القرى بعد وفعه حير أن يوقظه
لصلاة الصبح وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس ثم
صلى عليه السلام عن معه وإن أحدهم ليست العرق عن حبه من حر
ذلك اليوم . فلما سم قال : كانت أنفسا بيد الله فلو شاء قضها وكان
أوف بها ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال عاذر بلال معتذراً
وهو يقول : نأني وأمي فض نفسي اندي قض نفسك ! فنسم عليه
لسلام .

وإنما تدن هذه السهوة . وإن لم تتكرر على إيثار الراحة لأمر
علت كل حذر من تفويت صلاة الصبح حاضرة على السبى وصحته .
وهو حذر كان ولا شك في نفس بلال شديد بل أشد من الشديد

• • • • •

وآخر ما يروى من أعمال بلال وفهته مع خالد بن الوليد حين أمر
الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت
خالد وأتوا عبدة يسأله عن تلك الهبات أهى من ماله أم من ماله
المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته
ونقصها وعقله بها وخالد لا يسمع . وسأله . ما تقول ؟ من مالك أم من
إصابة ؟ فعد ذلك أحاب خالد بل من ماله فأطلقه وعممه بيده .
وهو يقول . اسمع ونطيع لولاتنا ونفهم ونحلم مولينا ،

ذلك آخر ما روى من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع
أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وحلق واحد ، وهو الطاعة
الحريثة التي لا تنسى التمجيد والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها
وأوجب فلم يكن أسرع منه بين شهود موقف إلى محاسبة خالد بأمر
الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتعظيمه وتعظيمه حين
فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذي يطاع ولأمر الذي تحب له الطاعة وهي
طاعة القوى الشريف ، ولست بطاعة المسحر الضعيف ، وقد عصي
ساداته والموت جاثم على صدره ، وعرض الطاعة على من يهابه العصاة
فكان سيد المطيعين ، ولا يشرف الإنسان إن لم يكن سيد الأمور إلا أن
يكون سيد المطيعين

الآذانب

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوة تكون من معدن الصلاة وتم
على صوت من أصوات العيب المحبب بالأسرار دعوة حية كأنما تجد
الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما بدأ الإنسان في الصلاة
من ساعة مرها إلى ساعة ، ويتصل بعالم العيب من ساعة إصعائه إليها
دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتدح فيها خشوع المخلوق بعظمة
الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الحواطر البشرية في كل موعد من
مواعد الصلاة ، كأنها نبأ حديد .
الله أكبر . الله أكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعوها المسلمون إلى لصلاة ، وتلك
هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا توميئ إياها ، وتلك هي
الحقيقة البسيطة عاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أعنى
الحقائق عن التكرار في الأبد الأبد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين
شواغل الدنيا وعوارض النساء .

لمسلم في صلاة مد يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكرها
عظمة الله وهي لب سائر الصلوات

ونصرح عنها هدة الليل فكأنها صاهرة من طواهر الطبيعة الحية تسبها
الأسماع والأرواح ، وبصت لها الطير وأشجر ، وبحف ه الماء وهواء ،
وترر الدنيا كلها برور التأمل والاستحاة مند تسمع هتعة الداعي الذي
يهتف بها « يا الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد غة أو عتس ، وتقول كلها إن الحركة
صلاة خمية بيد محرك الأشياء ، ومن الصلاة خير من النوم

وإد ودع - هـ انما صبياء النهار وستف - هـ حميا الليل فهو وداع
متحاوب لأصداء . كأنه ترحيل تهتف به الأحياء أو همس به في حصح
المساء . وكأنه يشتر على الآفاق عظمة الله فتستكين في سلام الليل
وفضال الأسرار والأحلام

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مصطربة توقظ
لأحسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، وإد هي أشبه صياح بسكية .
وأقرب صحيح إلى الخروج بالإنسان من صحيح الشواغل والشهوات .
حي على الصلاة !

حي على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح . لأن كل فلاح بغير الإيمان هو
الخسار كل الخسار .

• • •

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه معزل عن العقيدة
ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أو كما يعرف من وقعه في بدائه الأطفال
وبدائه العرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام

في لطيفة سمع الأذان ، ولانهمهم ولكسا بغيره حين يحبط ما بين
دعوات هذه الأرض وبين صبيحات النعب وصبيحات ابيع والشراء
وتؤخذ به ونحن لا ندري بم تؤخذ ، ونود لو ساحله ويصعد إليه ونستحيب
دعائه ، ويمسره المفسرون لنا « يأمر الله » فتكاد نفهم كلمة الأمر وتكاد
نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل . ثم
يقضى السوات بعد السوات من ذلك الزمن المقل ونحن نمرى من حيرة

انطفؤلة نأنا ما نزال حائرين ، وإن سميت لخيرها بأسماء بعد أسماء وأطلق
عليها عيون بعد عيون .

وفي الذكريات أصداء تكمن في انفس من بعيد وينفت المرء لحظة
من النحسات فكأنما هو قد خرج من سماع تلك الأصداء منذ هنية
عابرة ، ثم التفت على حين عرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذى سرى
إليه

إن أنقى هذه الأصداء في كل ذاكرة هي صيحة الأذان الأولى التي
سمعت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، وما ترون تتعدى ودى الذاكرة ثم
تنشئ إليه من بعض ثنيتها القريبة ، فإذا المرء من طفولته الذاكرة على
مدى وث مستطاعة ، لو استطاع وثة إلى ما ص بعيد أو قريب

ما الغراء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلمتهم من شيء من
شعائر العادة الإسلامية كما يلمتهم صوت الأذان على المنابر العالية ، كيفما
تختلف الترتيل والتلحين .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين
وعاداتهم » إن أصوات الأذان أحادة جدا ولا سيما في هذه ليل
ويقول جيراردى برغال في كتابه سياحة بالشرق « إننى لأول مرة
سمعت فيها صوت المؤذن الرخم الناصع حامرى شعور من الشجوة
لا يوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟

يقال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله قلت ماذا يقول بعد هذا ؟

يقال : إنه يدعو لنيام قائلا يا من ينام توكل على الحق الذى

لا ينام . . . »

وأشأ الكاتب . المتصوف « لافكساديوهيرن »

La Fecadio Hearn رسالة وحزنة عن المؤذن لأول مرة أى

لال بن رباح ستأتى ترجمتها بعد هذا الفصل فقام « باب السائح الذى
يهجع لأول مرة بين حدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المناظر ،
فلما تعوته حشعة القواد بذلك الجمال الوقور الذى يبعث به دعاء المسمين
إلى الصلاة وهو لاشك يستوعب فى قلبه إذا كان قد هبأ نفسه
للرحلة والقراءة والمطالعة - كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة .

ويتبين مقاطعها وأحراءها فى نغمات المؤذن الرابطة ، حينئذ أرسل الفجر
ضياءه الموردي فى سماء مصر وسورية وقاصها على السحوم وانه ليسمع
هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح .
سمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس
والمغرب يتألق بألوان القرمز والبصار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب
هذه الألوان الراهية فى صبغة مردوحة من البرتقال والرمرد ، ثم يسمعه
آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة
السفاحية فوق مسجد الله الذى لا يزول . ولعله يسمع فى المرة الأخيرة
عند نهاية التنعيم كلمات مقنعة بالأسرار الجديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها
ترجمانه كما فعل جيرادى نرفال أحابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير

يا من تمام توكل على الحى الذى لا ينام . . . عطيات حيلة تعيد إلى
الذاكرة تلك الآيات التى يقشورها فى المشرق على بعض الحجاراة الكريمة
ومها « لانا حده سية ولا نوم » . فإن كان لترجمان ممن يعون طرفاً من
تاريخ الإسلام فدلله يشه أن المؤذن الأول أول من رتب الدعاء إلى
الصلاة كان الخدم لمقدس الذى صطفاه نبي لإسلام هذه الدعوة ،

للال بن رباح . صاحب الصريح الذي يشار إليه لسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم ،

* * *

وقد بسا بحر أثر الأذان الملح في روع كثير من السائحين والسائحات الذين يتربون ببلدنا أسوار حلال الشتاء أو يمرون بها في لطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصلون إلى أسوار وقد عموا الأذان مرت في القاهرة والإسكندرية وربما سمعوه في غيرها من المدن الإسلامية ولكنه كان يهتفهم صيغة لا تلي كلما طرق أسماعهم باللس أو الهار - ولاسيا في يوم الجمعة وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالديانة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يرحم الغيرة الدينية بالعبارة لفظة في أذانه . فكان يجبل إيتهم بصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف العيب يطرق الأسماع في وقت رتيب ، أو يترقون طائراً من طوائر هجرة التي تأتي في الأوان ولكن كما يأتي كل شيء غرب

وكان من عادات المؤذنين التي شوا يعيدونها في شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طول السحور على المائر العالية في المربع الأخير من الليل فشكا بعض الدارلين بالفادق القريبة من المارة ورددوا في بيع شكواهم إلى رجال الحكومة لأهم حسوا هذه الطوب شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعض مثقفيهم وقيل هم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برحائهم وقالوا : إنا لانشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يراد يسرى إلينا في ساعة الفجر كما يسرى الحلم الحميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تندق فوق رؤوسنا ، وكنا

يحملها، لو عيما أنها شعيرة لانسديل لها . وكنا علما أنها تندر في كل بلد إسلامي على حسب عادته ، وأن المدن الكبرى تستند بها طولا صغيره تدق على الأبواب . فاستمعوا لنا أن يهدي إلى البلد بعض هذه الطبول وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للمساكين على أحجام مختلفة لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الخدم أو بسية العامين أو للتوقيع ولتنعيم . وكانت ملابس الدراويش ونسلحتهم وأدوات معيشتهم مما سحت عنه السائحون في أسواق البدة . فتدعو بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تقدمهم من قرع الطبول حين يحتضط بأصوات المؤذنين ، فيقبلهم وبشوه عندهم حمار الأذان الحفيف على أسمع الأيام

• • •

وقد كنت هذه لطول وشيكة في بدية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين إلى الصلاة .

دلم يكن الأذان كما سمعته اليوم معروفاً قبل انتشار الإسلام في مكة والمدينة . وإنما كان المسلمون طائفة قليلة تدعون إلى الصلاة الجامعة بالبداء يُسمع من قريب ، فلما صرحت القلعة إلى الكعبة فكر المسلمون في دعاء إلى الصلاة يسمعه المشترون بالمدينة من بعيد

ومن حملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يفهم أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادى مادي سبي عليه السلام بالصلاة جامعة ! فيجتمع الناس فلما صرحت القلعة إلى الكعبة تذاكر المسلمون لأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الباقوس وذكر بعضهم نارا توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبد الله بن زيد

المحرر حتى . . . فما دخل على أمه فقوا : « لا تعشيت ؟ » قال : « لا أذوق طعاماً » فإني قد رأيت رسول الله قد أمر الصلاة ، وبما مرأتى أن رجلاً مراً وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس . فسأله : « أبيع الناقوس ؟ » فقال : « ماذا تريد به ؟ » قال : « أريد أن أتباعه لكي أصرب به للصلاة للجماعة الناس . فأحابه الرجل . » بل أحدثك بحيركم من ذلك تقول
الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حتى على الصلاة حتى على الملاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وبأدى
الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله من ربه من منامه ذهب إلى النبي عنه السلام
فقص عليه ما رأى فقال له : « قم مع بلال فأتني عليه ما قيل لك وحاء
انصروني بعد ذلك فقص عني اشي ما ما يشبه ذلك لما »

وحرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما
سمعه الآن ، وراد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقره
اشي عليه السلام ، وبنى النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث
فيحصره له يجبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة بدعون إليها ، وإن كان في
غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . .
إلا أن الشيعة يصيرون إليه ، « حتى عني خير العمل » مع حتى على الصلاة
وحتى عني الملاح . ويردد المالكية التكرير مرتين بدلاً من أربع مرات
ولا اختلاف كذلك في حوار التلحين والترجيع في الأذان ما لم يحل

بنطق الكلمات ومخارج الحروف . لا أن الحباله يعسون الأذان بغير
تسحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترحيحات .
وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد
أذان قبله ولم يسقه إلى ذلك سابق في تاريخ الإسلام ، وهو شرف
عظيم . لأن محمد بن عبد الله كان يقيم المسجد الذي كان مؤدبه بلال بن
رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالا كان يحس الصوت إلى
أسماع المسلمين ، وأهم كانوا يقربون دعوته بصلاة النبي بهم فيزيدهم
هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أنت نقرأ في أثناء فتح مكة أن رهطاً من شركيين كانوا ينكرون
بداؤه ويساءلون أما وجد محمد غير هذا العبد يهق على ظهر الكعبة ؟
وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يدعو ظهر البيت الذي لم
يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهاهم أن يروا عبداً يصعد إليه ويجهر
بذلك البداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟
فلجأ الرجل إلى حكمة المصطر وقال . دعه . فإن يكس الله بكرهه
فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وأبوسفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً
بهاء الكعبة يوم أمر النبي بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان
فقال عتاب . لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه
ما يعيظه . وقال الحارث بن هشام . أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته .

وَنُكِرَ أَوْ سَفِهَ مَا مَعَ أَوْ قِيلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ حَمَمٌ قَاتِلًا
لَا يَقُولُ شَيْئًا . وَلَوْ تَكَلَّمْتُ لِأَحْبَرِ عَنِّي هَذِهِ الْخِصَاةَ .

وهن أن خيل هذا الإنكر إلى شيء يوحد ما أحد القدر يسعي أن يذكر
أن ذلك الموصف جاء من المشركين الذين كانوا حنفاء أن يسكروا أول
أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترحمت به الملائكة
الأطيار، وأنهم سمعوه رقيقاً و«هيفاً» كما قالوا لأهم سمعوا شيئاً لا يصيقوه
ولا يسترحون إليه . وكانت لهم عنجهية لسادة في النظر إلى العبيد،
وكان لبلال عندهم وتر معروف عن قبل من سادت مكة في عرواته
مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى المحشوع ثم إلى ذكر نسي الخبيب . ورددنا كره المشركين إياه إلى المردد ثم إلى العصبية والعداء فقد بقى شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهره الصوت وابتعاد مداه في أحوار الفضاء . ولا حاجة بنا إلى العداء في الموارنة بين حشوع المسلمين وعداء المشركين ليقول إن احتثار النبي إياه يدعو ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات . هو الشهادة بصوت المؤذن الأول بالسلامة من انقصة والشور المعيب . فما عهد محمد عليه السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المصير الحسن . وكان يكرر كل تكبير ويستريح إلى كل جمين

المؤذنت الأولى

كتب عن الخلفاء الراشدين وكنار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوروبية في أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام ولكن الذي كتب عن الصحابة ممن لم يتولو الحكم ولا اشتركوا في سياسة لعامة كلال بن رباح - حد قليل - وبين همد لقليل الذي كتب عن بلاد خاصة فصل في اللغة الإنجليزية للأدب القصصي مكاديو هيرن Laicadie Hearn الذي عمل حياً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في حرراهد لعربية شبعة لفرنسا ثم حال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبني فيها بروجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هادئاً بنفحات الشرق الروحية سواء هبب عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان .

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التي هي أحق به وأولى . وتعد مناسبة نقله إلى العربية سانحة كل السوح في صدد اترجمة للال رضي الله عنه برسالة مستقنة به مقصورة عليه وهو عدا ذلك فصل قيم يعيضم بالعصف لإسائي والروح لشعرية ولفكاهة الأدبية . ويصيف كثيراً إلى عمننا بأثر الأداة الإسلامية في نفوس الأدباء العربيين ، ولا سيما الأدباء من طرار هيرن الذين أطمأنهم الحصارا العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الري الروحاني من يابيع أخرى غير يابيع أمريكا وأوربا

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold نبي يقول فيها مخاطباً انعرة الإهبة « يا أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء فحاة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكية السماء - لما

حلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفي أعوار
الماء نعم . ولو ذهبت هذه وذهبت الأرض معها لبقيت لك
آيات في أعالي السماء أعظم وأهمي . إذ كل شارقة فوقها من تلك الشمووس
التي تشتعل إلى مطلع النهار وتنك الكواكب التي يعود بها الليل كل
مساء هي يرب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك
الوصاء »

ثم قال هيرن « إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين حدران مدينة
من مدن الشرق على مقربة من إحدى المناظر على المسجد الجامعة فلما
تصورته حشعة الفؤاد لذلك الحال الوقور الذي يبعث به دعاء المسلمين إلى
الصلاة ، وهو لاشك يستوعب في قلبه . إذ كان قد هباً نفسه للرحلة
بالقراءة والمطاعة - كن كلمة من كلمات تلك الدعوة المقلسة ، وشي
مقاطعها وأحراها في نغاث المؤذن الرابطة حينما أرسل الفجر صياحه
الموزد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على الحجوم . ورنه ليسمع هذا
الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق صياء الصباح .
يسمعه تحت وهج الطهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غيب الشمس والمغرب
يتألق بألوان القمر والنصار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تسرب هذه
الألوان ابراهيمية في صبغة مردوخة من البرتقال والرمود . ثم يسمعه آخر
الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة
المسجدية فوق مسجد الله الذي لا يروى . ولعله يسمع في المرة الأخيرة
عند نهاية التنعيم كلمات مفعلة بالأسرار الجديدة على أذنيه فإذا سأل
عنها ترجمانه كما فعل حيراردي نردل أحانه ولاشك بتفسير كذلك
التفسير يامن تمام توكل على الحي الذي لا ينام . . عطيات حليلة تعيد

في الذاكرة تلك الآيات التي نقشوها في المشرق على بعض الحجارة
الكرمية ومنها : « لا تأخذه سنة ولا نوم » فإن كان الترحم من موسى
طرفاً من تاريخ الإسلام فنبهه يشه أن المؤذن الأول أول من رتل الدعاء
إلى الصلاة كان الخادم لمقدس الادي اصطفاه نبي الإسلام هذه
الدعوة - بلال بن ربح صاحب الصريح الذي يشار إليه للسائح في
ساحة من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقيه
وهو يتحد ديس الإسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال العلم في
برجيع صوته - دنت الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في
الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتي عام .

وقد رجع بلال أدنه قبل أن ترسم في الدهر صورة مباركة لأولى ،
وقبل أن يؤثر القوم حثير المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه
مطراً محرماً وهو يطل من علي على سقوف المدينة .

وابيوم ترتفع إلى السماء مائر لأعداد لها في كل موطن من مواطن
الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على ساء بعضها أيد حاهنة
عميران البناء فيحيل إلى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمثدية
« أوحية » التي رآها فكتور لارغو Lergau في سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التي يرددونها المسلمون في أنحاء عالم الإسلام من حيث
تقوم نبي القرميد التي ترتفع على قنور الصحراء إلى تبت المائر السحرية
الحائلة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند صريح « تاج محن » بالهند
هي ننصها ونصها تلك الكلمات التي ترممها صوت بلال المكين
ولا تزل للمؤذن شروط ترمي حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان

فعلية أن يحفظ القرآن وأن يردد اسمه وسمعته عن كل سوء . وأن يكون له صوت واضح جهير وضجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة . ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطالب من مؤدبي صدر الدعوة الحمديّة وباسلمون على ذكر من صوب نلال قد كانت أندر وأصعب مما كتبت به بعد ذلك وقد روى الشاعر الهارمي لأشهر مصلح الدين السعدي في كتابه سنان الورد غير دائرة واحدة يدعي آراء أساء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤدين وقراء أي الذكر الحكيم

قال في بعض تلك النوادر إن مؤدباً في سباجار تعود أن يؤدي لأداء أداء صحيحاً ولكن بصوت كربه إلى كل من سمعوه ، وكان صاحب المسجد أميراً عادلاً لا يسيء في عمل من أعماله . فلم يشأ أن يخرج فؤاد المذنب المسكين ، وحاطبه على نحو يرضيه فقال له : ياسيدي إن لهذا المسجد مؤدين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير فهل لك في عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تترك هم مهمة الأداء فيه ؟ فقبل الرجل عرض الأمير وعاد إلى المدينة إلى حيث شاءت له المقادير

بلا أنه لم يلبث غير قليل حتى قهر إلى الأمير قاتلاً فقد ظلمسي يمولاي إذ قد ريت لي أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير فإنهم قد عرضوا عليّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن أمارقهم فأنبتها فانتسم الأمير وقال لا يجذعوك إذ أني لأحسهم معطيك خمسين ديناراً أو يريد على ذلك إذا صردت على البقاء هناك

وفي الكتاب دائرة أخرى لا تقل عن هذه في صرافها . يريدنا فيها أن نذكر أن الأسلوب العربي المأثور في تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف في التلاوات الدينيّة وخلاصة لدائرة أن هارثاً من

حماض الكتاب كان يحوّد الآيات بصوت غير جيد فمر به رجل فطر
وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال لحافظ : لا شيء . فان
الرجل وهيم إذن عماؤك هذا ؟ قال : حيا لله ! قال الرجل المفلح :
حيا لله إذن لا تقرأ يرحمك الله .

* * *

وبدا بلال حياته عبداً لأنه كان وليد حارية حشية ، ولم يعرف عن
نشأته في الطفولة غير النور اليسير ومن وصف سيروليم موير إياه بظهر أنه
كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوحه ملامح الزنوح ، وأنه كان
طويلاً أحنأ كأنه الحمل ، لا يروق الضر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد
متين الأعصاب

وقد كان يدعو محمد الأولى أنر عمين في قلوب عبيد مكة ، لأن
هؤلاء القوم انعرباء في ربة العودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا
ولا رب دعوة السي إلى الأبوّة العليا التي تكلاً الناس جميعاً كما يتلقى
الحريج بلسم الشفاء والحريين سيرة العراء .

ولعل بلال كان أول من دان بالإسلام من بني جلسته ، وذلك فان
السي عنه إنه أوب ثمرة من ثمرت الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقى من
والدته السوداء شيئاً من تلك الخواصر الفحة التي شاعت في الحبشة باسم
الديانة المسيحية في القرن الرابع فهايات دمه لقول وحدانية الإسلام .
وما هو إلا أن بدأت فترة الاصطهاد حتى نصب أشده وأقساه على
هؤلاء لعبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد نجد أن يحسى الرجل
دوى قرباه ولو كلمته حمايته بدل حياة من سمث دم عرى فهو غير آمن

أن يترد عليه أهله ناثراً وأن يستمتع بذلك حرماً سجالات بين العشيرتين إلى
رمن طويل ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على
أنفسهم من سطوة السكين الضعيف ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية .
فتعاورتهم الأيدي بالضرب وتنفوا بدر موت وذاقوا أمر العذاب معرضين
لسيران القيظ في شمس الحريرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد
وانطل الوارف والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذي يضاف إليه
عذاب جوع وبطناً أشد من أن تدفعها عرية أولئك المساكين .
فدارلو واحداً بعد واحد يتموهون بالعبارات التي كانت تملئ عليهم ساءاً
لنبيهم ولو حرحت من اشفاه دون القنوب ، وجمعوا بقسمون باللات
والعري على صدق مايقولون ، وطاماً عاد بعضهم فكى بدماء على مفرط
مهم في ثلث المحنة الكراء .

ولكن النبي قد استنزل لأولئك المساكين عراء وإيماناً بذكره القرآن
عهم ، حيث جاء فيه : « إنما يصترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله
وأولئك هم الكاذبون من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلة
مضمن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدر فعليه عصب من الله
ولهم عذاب عظيم » .^(١)

وقد ظل نال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصباً ولم يبل من
عقيدته ثم الضرب ولا حر انظماً ولا طول التعريض للشمس على بطاح
مكة المشهية ، وعمرت كل هذه المحن أن تشي عزيمته الحديدية . فلم
يكن له خوف على كل أمر يشقاه من معدسه إلا أن يردد قوله أحد
أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة نبال أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها

الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للإشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على جسده الهزبل ضربات العصي من الخشب ، والسياط من الحديد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يملك قط من توحيد الله الذي لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم - والحشيش المسكين يتلظى من ألم داك العذاب - أن عبر به رجل نحيف ابداً صغير القد حميل الملامح واسع الحين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان داك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الإسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم ورميله في ذلك الكهف لدى تقول الرواية إن العناكب سجت على مدخله خيوطها لتخفى اللاحثين إليه عمن يتعقبونها ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أي المخلص النوي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قدر لها أن تقرن بالنبي وقدر لأبيها أن يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أعتق كثيراً من ثروته التي تبلغ أربعين ألف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادهم من أجل دحومهم في دين الإسلام . ومعظمهم رجال مهارييل أو ساء ، وكان أبو قحافة يؤخذه لأنه ينفق ماله في إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أعتقته في إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرمون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يحبه كلاً . يابته . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة إن هذا الدب السخني في سبيل التقوى قد أفقر الرجل

حتى ليس الثياب الحشنة من شعر المعز الذي ينفق بالسلا

فلما شهد بلالا في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتدث الحان

وأخذ ثوبه يساوم أمية بن خلف وأبي بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلاً ما كان يحطر على بال أحد من شهود ذلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتي على أمية وابنته يسألان فيه الرحمة من عبيدهما الذي ضنا عليه بكل رحمة فلا يبالاها . لما انقضت عشرين سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبه وسنحت به فرصته بعد وقعة بدر الحامية . فرفعت عليها عباءه بين أسرى قريش ، وشى قلبه أن ينظر إليها وهما يدحان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الدين يديون به أن يحزوا الشر بالخير وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوحه الله .

وكانه بلال رجلاً قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهرال في قصيدة الشاعر الفارسي إلا على معنى الهرال الذي توصف به لطبيعة الشربة بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب وانوشاية أن قال قوله في السب الذي بعث أبا بكر إلى شراء لحشى المعذب ، فرعم من رعم أنه توحى المائدة وم يتوخ لتقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة حلقة أن تسرى مسراه في البيعة التي عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصرف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلطون به ويوسع الفاتلين به تأنيباً وملامة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة النبل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما حين الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى ، فاما من أعطى وتقى وصديقاً بالحقى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحقى ، فسيسره للعسرى » وما يعنى عنه ماله إلا

تردى ، إن علينا للهدى ، وإن من الآخرة والأولى . فأذرتكم ناراً
تطفى ، لا يصلها إلا الـأشقي ، الذى كذب وتولى ، وسيحبها الأتقى .
الذى يؤتى ماله يتركى ، ومالأحد عده من نعمة تجرى ، إلا ابتغاء وجه
ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ^(١) .

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن
يساهم بنصيب فى نشر دعوة الإسلام .

وتزعم بعض الروايات أن بلال عاد بعد هجرة النبي فوقع فى أسر
قريش فعذبوه وصاموه ، ونكها رواية لا يوثق بها فى رأى المراجع التى
تعتبر حجة فى ترويج الدعوة الإسلامية ، وإنما لالتقى بلال مرة أخرى بعد
عتقه فى المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأدان

• • •

ولم يكن الأدان معروفاً فى مستهل الدعوة الإسلامية حين كان المؤمنون
فئة قليلة تقيم إلى حوار بينها ، وإنما كان الأدان صيغة مسموعة ينادى
بها المتنادى إلى الصلاة الجامعة

ثم عرف الأدان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القلعة من بيت
المقدس إلى مكة وكعبته . إلا أن بيت المقدس لم يزل له شأن فى
المأثورات الإسلامية ولم يزل عزيزاً فى قلوب المسلمين .

لا يذكر الـداكرون من علامات الساعة الكثرى أن عيسى من مريم
سيقل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قيل صلاة الفجر
فيشرق المسجد بطبعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبته أولئك الذين
يرعمون بهم من أنساعه حين يعن يسهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله ؟

أما كيف حطرت فكره الأدب فقد كان ذلك توفيق حبيب .
ومعجواه أب النبي حين فرغ من بناء مسجده - الذي يعد على رهادة بنيانه
مثالاً للأسلوب العربي في البناء - تبن على الأثر أن دعوة المسلمين إلى
الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال
المسلمين في ذلك الحين ! لأنها حلوا من ذلك الحلال الذي لا عيب فيه في
بقية الفرائض العامة وانشعائر العلنية .

وخطر لسي في ساءة الأمر أن يتحد بوقاً للدعوة إلى الصلاة . ولكنه
لم يشأ أن يحول ابقلة عن بيت المقدس فم يتحد لدعوة الصلاة أداة كان
يستعملها اليهود في بعض الصلوات .

ثم حطر له أن يتحد للدعوة ناقوساً يدق في ساعات معلومات .
ولكنه لم يجدوا في امدية من يصنع الناقوس المطلوب .
وإنه ليوشك أن يتحد للدعوة ناقوراً من الحشب إذ سحت فكرة
لأذن لبعض الصالحين في رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النام أنه لقي على مهربه من
داره - وهو يسرى في ضوء القمر - رجلاً طويلاً في ثياب حصر بيده
ناقوس حميل ، ويدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه
الناقوس فتسهم الرجل الطوال وراح يسأله . ولأى شيء تريده ؟ فقال
له . إنما أشتره للنبي عليه السلام ليدعوه المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطول . وكأنه يزدداد في مقاله طويلاً كلا بل أحبك
ما هو أصليح وأحدث . فحير من ذلك أن يبادى مباد بالدعاء إلى الصلاة
من سقف المسجد كما أصعب . وانطلق في بدائه بصوت دنان عجيب

سماوى لجلال يبعث الوحل الأقدس فى فؤد سامعه ، وهو يردد ذلك
الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقيا العربى إلى تخوم هستان
الله أكبر .
الله أكبر .

أشهد أن لا إله إلا الله .
أشهد أن محمداً رسول الله .

حى على الصلاة .
حى على الصلاح .

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده ولعم العجيب يتردد فى أدبيه ، وبادر إلى التنى
فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه التنى كما يسمع الرؤيا الصادقة التى تأتى
بالمداية من الله ، وتذكر تلك هبة الصوتية السادرة التى حص بها مولاه
الوفى بلال . فأمره أن يبدى إلى الصلاة تلك الكلمات التى سمعها المسلم
الصالح فى منامه . وكان الليل فى هريجه لأحير هو عى مؤذن الأول
واجب صاعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو إلا أن طلعت شائر
النور الأولى حتى بهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحشى الساحر
يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد فكان ذلك فاتحة تاريخ
المنازة العملية التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية ،
وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المصماء بهز الكواكب عى
سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنازة الناقية قبل ألف ومائتى عام

في حلال تلك القرون جمعاً لم يعرف الإسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله

ولا تزال نجات الأدب تعلم طريق الساعات لسكان مدائن شي لاعدادها وفي المثورات أنها ستكون علامة للساعة التي تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر - مسيح الديانة الإسلامية يجعل الأذان بصوت جهوري يدوي في أنحاء العالم بأسره

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب في العالم الإسلامي بدقة يدهش لها السائح ويعجبون

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين في استحبه داعي الصلاة حتى استخدمت أحياناً في الإضرار بهم والإغارة عليهم فاتفق في بيسابور - تلك المدينة المحببة إلى عطار لروح الشاعر المعروف باسم العطار أن الأذان يُعلل لأول مرة عدراً واختلا بالإيقاع من يستجيبون إليه إذ حدث في السنة ثامنة من لقرن سابع أن أعارت على المدينة جموع جيكرخان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستصان والتحريص عادة مريدة بين الأمم في قسوتها وغدرها ، وهي أن يعودوا إلى المدينة فحاة بعد تحريبها ليعملوا السيف فيمن رجع إليها من أهلها مطمئناً إلى حلاء العدو عنها أو فمن يقبلون على الأبقاص المحترقة يستخرجوا نفائس الاعلاق منها فلم عادوا إلى بيسابور عن هذا البحر أمر الرعيم المعولي بإقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالحناني والروايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف هذه الجموع : « إهم يقصدون إلى زيادة نوع الإنسان وقناء العالم ولا يقصدون إلى السيدة أو العيمة » .

إن حو المأثورات - مما يحفه من الأشعة والمالات ليرى فيه صوت
للال أبدأ كما رن في احم صوت ذلك العرب في لأكسة لحصر منعثاً
من عالم فردوسى إلى مسريل بالضياء

ويس في مقدورنا بعد انقصاء تلك الماث من السير أن نعرف
حقيقة صوت المؤذن الإفريقى ولأن نقوم مزاياء الموسيقى التى لاشت
فيها ، ولكننا إذا صح لنا أن نستدل بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية
والأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « اساريتون » المعروفة لدى
بالامتداد والبرادة خلافاً للخدمة العربية التى تعرف شئ من الخدمة
والعمومة .

ولا يعورنا السبب لأن نشك في أن أحداً من مشهورين بين أرباب
صناعة العناء في الهاهنية كان من ذلك العصر العربى - الذى وصفه
سائح فرسى فقال : إنه شعب صحاب ، وقد أسأنا الدكتور بيروى
Perran في كتابه المجتمع عن النساء العربيات الذى نشر باحثر سنة ١٨٤٨
أن معظمهم كانوا عبيداً وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على
وجه الإجماع من الخش أو الروح ، ولا يبعد أن تكون القيتان
المشهورتان باسم حرادى عاد - ولا يزال لأغانيهما بقية مروية فتبين
حشيتين

وتقول لأحبار بهما كانتا بعد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وإن
فترات التاريخ العربى لم تحمل من عتقاء أو حلاسين بيعوا في الشعر أو في
المر أو العناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذى نظم إحدى
المعلقات ورويت له أعان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ومعنى به عترة بن
شداد

ومهم حفاف الشاعر الفارسي ابن عم الحساء ، والشعري الذي لم يكن حظه من الشعر بالقيل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاسية نارا لحميه لدى قتلوه لأنه رتضى لبسه روحا من غير أكفائها وقسم لا يهدأ أو يهتس منهم مائة بقتيله فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا راسه وحاء رحن منهم فركبه بقدمه العارية فجرح في قدمه وفسد حرحه فمات فقبل إن الشعري بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبي أنه ود لو شهد عذرة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعماماً شعره كما وده لحمه محدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ يجمع إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحب لواء نبي يشر بالمساواة .

وصوت روح لإسلام شيئاً شيئاً قصيد الصحرَاء الحميل بألوانه الساحبة التي تشبه ألوانها . وحرارته التي تشبه حررة رماها ووقدته التي تشبه وقدة سبائها ، وبكى الأعربة لم ترب تعنى وإن كمت عن نظم المعينات ! ولم يكن بالقبيل عدد المعين السود أو الخلاسين الذين بعبوا في لقرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسييد بن مدحج الذي صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه قتل أثناء لأشراف بسحر غنائه فأحرلوه به العطاء وضيعوا تراثهم عليه كان عدداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الربيع قد لقي الخطوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام وقد حشا يريد الثاني فاه درأى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد أمير العناء في عصره أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وعشى على يريد من الطرب وهو يستمتع لعنائه ، ومجحه خلفه التي عشر

ألف دينار جائزة واحدة . ومشى في حازته الوليد الثاني هو وأخوه في
ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء التي بلغ ثمن الفلة منها أربعين ألف
درهم - كات من سلافة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبها
من حوارى ، مدينة المولدات ، وتروى قصة من أشحى القصص العربية
عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حرناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات حوارى السود وأساليبهن في الغناء كان
ما سحر مدحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء
العرب والفرس في بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن حنبل أعظم
لمعنى في عصر الإسلام الذهبي أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لبقل
عنها عما غريباً ، معها تترجم به وهي تحمل الجرة على رأسها ثم وضع في
ذلك النعم دوراً ، معه الخليفة هارون الرشيد فقل إنه لم يسمع مثله قط في
جماله وابتكاره وأجاره عليه بأربعة آلاف دينار ومترن بميس الأثاث
والرياش .

ويقص علينا السعدي - الشاعر الفارسي - ألباء أخرى يعلم منها أن
أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر
لإسلام . ومن تلك الألباء قصة رواها في كتابه ستاد الورد من أحوال
الدرأوش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجار في رفقة من الشبان الأذكىاء ، وكانوا
يترجمون في الطريق بين حبر وحبر بعض الأشعار الصوفية ، وكان بين
رجل من الأنقياء يكرر سلوك الدراوش لأنه يجهل حاجهم ولا يعرف

بجراهم ، فلما بلغنا محل بى هلال برزنا من حيام بعض العرب علام
أسود ينغى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى حمل صاحبنا
التي قد أحده الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الأرض وهام في
الصحراء ، فصحت بالرحل يا هذا ! إن صوت هذا النقي قد عمل في
الحيوان الأعجم ولم يعمل عليك .

وداك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحجزوا الإبل إلى المسير
والصبر على السهر بأخان الخداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقاً على
هذه الواقعة في ترجمته لستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى
أعجب من الأولى فقال « إن مؤلفاً من الثقاق نزل بصياغة رجل في
الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فحاده عبد زحى وسأله أن يتشفع له
عند مولاه في دبه ، فلما حصر الطعام أبى المؤلف الصيف أن يمد يده إليه
أو يصطح صاحب الدار عن دب مولاه فقال له صاحب الدار إن
هذا العبد حيث صبح عليه ماله ورده إلى أسوأ الخار ، وقد مسحه الله
صوتاً حميلاً فأفنته حادي لإبلى فأحدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم
واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وصعت
عنها أحمالها لفرط مناها من الإعياء ، وقد وحب لك حق الصنف
فتنبلت شعاعتك وأعميت هذا العبد الخبيث من الخراء »

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدر على شأن الخدة في
المشرق نادره حكاهما حلال الدين في تاريخه حيث قال إن المصور
أجاز سالماً الحادي بنصف درهم لأنه أطربه بخدائه حتى أوشك أن يسقط
عن جمده ، فقال سالم لقد حدثت هشام وأخبرني بعشرة آلاف «
فما لاشك فيه أن المعين في الخاهبية وفي الصدر الأول من الإسلام

كانو على الأكثر من العيد والموسيقى . وأن هؤلاء العيد السود كانوا من
دوى الهبات الصوتية العجبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم في لصناعات
الموسيقية . فلا داعى لشك في ملكة الغناء عند بلال ولا في قيام
المثروب عن صوته الحسن على أساس صحيح . . . ويبقى أن ننظر هل
هو الذى ألدع الحس لأدب الذى مضى عليه المؤدبون من بعده أو أنه قد
أدى الأذان كما أمر به وأوحى إليه .

وعلياً أن يذكر « أولاً » أن العرب لأقدم من حساسينهم الموسيقية
لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوتى إلا في القرون المأخرة .
وعاية ما بلغوه في هذا الباب يشبه التصديحات الكورسبكية الحديثة مما فيها
من الرزكشة والتزديد على هوى المعنى أو على هوى السامعين فتعاد
الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتعويده وتجويد ومد وقصر بطول التكرار فيه
حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات
ولا تزال هذه السرعة في الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين .
فقد صدق بيرون PETRON حين سأل أى سائح في مصر لم يسمع كلمة
بالليل تعدد مرة بعد مرة ونصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنعام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية
على ثلاثة أنواع متعيرت وهى ما يسمى بالنعم البسيط ويعنى به في
مقام الوقار ومعارض لطولة أو السهولة كغناء الحرب والهدوء
وما يسمى بالنعم المركب وهو يتألف من حركات عدة ونرجيعات
صوتية كثيرة ، وما يسمى بالحقيف وهو يستحلف السامع إلى الطرب ويهره
ويحرك أشجائه ويخرجه عن الوقار
وما كان بلال عبداً وكان ولا ريب في بعض أوقاته يسوق لإبل فقد

كان على الأرحح يتعمى بالحذاء ويعالج النعم السسط . ولكنه سلفته
 الإفريقية التي طبع عليها أبناء جلدته ربما وجد من وقته متسعاً لترديد
 الأصوات المركبة واستطاع من ثم أن ينشأ الأدان في أحيائه المعروفة
 فلا يحى أن النعم الذي سماع في المدم فلما يشت في انداكرو ، وأن
 النعم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف العربي صاحب انثياب الخصر
 يصعب أن يعلق بذاكرته ويحرق على لسانه وهو يقص رؤيته عن النبي
 (صلوات الله عليه) .

ولا يبعد إدب أن يكون بلال قد سمع الأدان وصاح منه اللحن الذي
 أوحته إليه سلفته الإفريقية الآتية فأقره النبي عليه كما أقره على ما أصافه
 بعد ذلك إلى أدان الصبح حيث راد عليه الصلاة خير من اليوم
 ولا حرم يقره محمد على أسنوب ترتيبه وهو الذي كان يقره إليه ويسأله
 الرأى في مهمات الأمور وقد كان يؤثره على غيره من المؤدسين ، فلم يكن
 يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأدان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال
 قادر على الدعاء إليهم .

• • •

ولم بلال النبي عن كثب صوال حياته فكان يوقظ النبي بعد
 لأدان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من حوامع الحكمة والتقوى . فإذا
 استمع المصلون بالمسجد انجذبت الأنظار نحو الإفريقي لواقف بالصف
 الأول ليتلو في حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان
 الأدان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع لشماس مع
 لاسقف في الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

أمور أهم وأكبر من الأدان . فكان حارن بيت السى وأمينه على المال
الذى يصل إلى يده . وملتقى من السى مفاتيح نكعة يوم دخل مكة في
موكه الطافر وكان هو الذى أقام الأدان على أعلى مكان في تلك السية
الى اشهر لآ في أنحاء الكرة الأرضية . وكان هو الذى دعى إلى الصلاة
يوم حصر إلى يده ملوك حصر موت للدحول في الإسلام . وكان هو
الذى يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الإسلام بالصبحراء لقتال
عابدى الأوثان .

وتروى عنه أحبار شتى بعد وقعة بدر وفتح حير تشف عن بعض
شديد لأعداء وبيه ولحس إليه للاحاجة به في هذا لمقام إلى تفصيلها .
وأجمل من هذا أن يذكر للأسود الأمير غيرته على شخص السى يوم
ذهب معه في حجة الودع فظل يحرص على راحته طول الطريق ويمشي
إلى حانته مظللاً إياه يستارق يده بحميه وهج الطهيرة ، ولعله في تلك
الرحلة قد عبر في الوادى مقدس تلك الأماكن التي كان سادات قرش
يعذبونه هو في حر شمسها .

ثم تولى محمد عليه السلام « فسكت الصوت العجيب ودعى
مؤدبون آخرون للدعاء المسلمين إلى الصلاة » لأن بلالا عاهد نفسه ألا
يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا تعلم كم من الوقت قصاه بلال في صحبة أبي بكر بالمدينة .
ولكنه ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان به
من جلال القدر في أقطارهم ماحولة أن يحطب امرأة عربية حره لأحبه
الأسود وهي رعاية عظمى بين قوم لا يراون بمخرون بصحة النسب
ويسمون أنفسهم بالأحرار أى المختص من النسب الخليلط .

ويؤكد من بعض الأساء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول . فيما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله - عمر بن الخطاب - أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عيمة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

وبكثنا لاسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل . حتى وصل عمر إلى الشام فتعلم أنه كان يصحب الحشش وأنه كان قد منح حوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال . وكان معظم الصحابة قد هارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وحالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن حاولوا معه في معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على محط الجيل الذى تقدمه في المعيشة ، فزالت أركادت تزول من حياة لعرب تلك الساطة البدوية التى درجت عليها ، وظهرت يسهم بدع من الترف الآسيوى لم تكن معهودة فيما مضى . وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا لخليفه عمر وهو ينظر إليها ويحشى منها القننة والحسد على رعاياه .

وفى خلال ذلك كانت لعقبة التى تعدت بلال من أحبها وداها رمتاً وهى لاتتجاوز حتى أى طالب - قد حاورت انزور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدا قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذى لا ينام وهى تسلك سبيلها إلى القارة الأفريقية فنضمها إلى فتوح الإسلام وهذا أصبحت دعوته الأولى - دعوة الأذان - مستجابة بين أقوام من المتعدين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء

العربية أبواب كابل . . ولعل ولدأ من درية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائى يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما ملعته المترح الإسلامية - حتى فى السنة الثانية عشرة للهجرة - لخلق أن يستجيش فى صدر الشيخ الهرم حمبة الدين ابى عمر ما بين حاجيه .

• • •

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد سه ووليه ، لأنه رأى فى حسابه التتى أن انصوت الذى أسمع نى الله ودعاه إلى بيت الصلاة لايسغى أن يسمع بعد فراق مولاه . ولما أن نتحيله فى مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذى أعلمه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصاييح الكواكب ، وبه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الدين كانوا يحلونه إحلال القديسين وبودهم لو بدلوا أمواهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب صمراً إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا بإقامة الأذان تكريماً لمحصر أمير المؤمنين ، فرضى بلال وكان أذنه لأحير .

• • •

لقد كانت عيرة فتياا الدين الحديب فى تلك الأيام غيرةً يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النأ الذى سرى سهم مشراً ناستماعهم إلى أذن بلال قد أذكى فى هموس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لانظر أن اعالم المسيحي قد شهد ها مثيلاى عبر أيام الصبيين . فلما شاعت البشرى بين أساء لمدينة سماع صوت المؤذن النبوى لاح لأكثرين ولاشك أن انظر سماع هذا الصوت عيمة مقدسة تكاد أن

تصارع الظفر سماع السى عليه اسلام . وأما أفعر أحدىثة و الحياة
تروى بعد اسيس الطول للأبناء والحفدة . وقد يكون في المدينة من تلقى
لأنا بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراق . ولكن الأكثرين الذين
تراحموا في صمت وحشوع وحنى القلوب مرهق الآذان لسماع
« انكسيرة » المعروفة قد حذرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يعلم
به السيان . وتركي روايات «بيان هذا الاعتقاد ، لأنها تعلم من تلك
الروايات أنهم بعد هفة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة
الصوت الجمهوري تشق حجاب السكون وتتعاقد من حجرة الشيع
الأفريقي تلك الكلمات المخومة الناقية حتى نكس عمر ومن معه وتحدث
الدموع على وجوه أولئك الأطول المهادين وارتفع لرفراتهم شيع عان
عطى في المسجد على دعاء الآذان الأخير .

أى هناك موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا بد لو سمع كيف كان
صدى بلال في ذلك لأذن . وأن يسمع الكلمات الخالدة كما كانت
تسمع من أول المؤذنين ؟

ولاحظه بنا إلى أن يقول إنها أمنية مستحيلة . لأن من النوبة أو
تدوين الأنعام لم يكن معروفا يومئذ من العرب . ولم تكن لهم وسيلة لنقل
الصوت من حين إلى حين غير نفس الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نحرر كل
الجزم مما بهي أو مما يبدل من قند . بلال الآذان ونكس مرجع إلى الطل وقد
يغنى في هذا الباب ولدي من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصوات
بما وأنف سنة محفوفة في الذاكرة بعير تدوين . ولعلنا سنطبع القول بأن
بعضاً من السمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست
عيرة العرب على الماثورات الدينية بأقل من عيرة العبريين . فلا حرم تسبح

لأنقام الأذان فرصة للبقاء و الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأباشيد
إسرائيل .

فمن الخاطئ أن الأذان الحديث فيه على الأثر نعمات مشامة للمخبرات
التي ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية يعبر بتعديل
ولعل مصر التي فتحت وبلال بقبة الحياة مصر بلد الخلود الذي
لا يقبل التبدل . قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة
الثانية بعد الهجرة الحمديّة . وقد سمعت لأذان من مؤذنين "معوه من
بلال .

وبرصينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه
المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنعام تذكّر السامع
برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أحراء وأحرء مما يقع موقع العمارة في
تأثيره على مسامع العربيين .

وقد كان المؤذن الذي معه فيلوتو أقرب إلى التمس من المؤذن الذي
سجل لين Lane بغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهي وفي
السمع انتظار لبقية تالية . ولعسا يؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل
ذاك الأذان لما فيه من نحرثة الهم التي يألفها العرب وتشبه تلك الحفايا
المستعربة في الأصداة الإفريقية إلا أن الهم الآخر مع هذا يعبر على
سماطته عن حياء ووقار ويوحى إلى معنى العادة الخالدة التي لا نهاية لها
والتي هي :بدأ في ابتداء يعبر حتام . كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل بما
بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا مترجمة من الإخيلية عن الكاتب الأملى لكاديويرون . يتبين للقارئ منزه الأدب في الكتابة والتصوير وهو على الأعلب مترع الخيال وانهار والعطف على الحياة الشرقية التي تترج بنواريح الروحيات والدينيات على الإحسان ، وهو مع تحفيقه في مراحة المصدر التي عتمد عليها م يحل من هفوة ها أو هاء لا يعيب سوء البية لدى تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين . وإنما يوقعه في الخطأ حب الخمار أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستعي هذا المقال بمتع لدى حيي به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصيح فيه من مقاله مايجتاح إلى التصحيح أو الاستدراك .

من هفوته العرصية إشارته إلى عقب بلال رضى الله عنه وليس له عقب كم ورد في ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بين له أو بنات في كل ماقرأناه عنه .

ومن هذه الهفوت العرصية اعتقاده أن أبا ربيعة كان أحبا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أحوه في الإسلام على ستة لمؤاحاة التي كاب أنسى (صواب لله عليه) يعقدها بين الصفحات من أنصار ومهاجرين .

غير أن هفوته انطهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المعين والمعيات بين الموان في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد لأصلاء فإنه يجتج في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بمعص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة المصية عند لعرضي لأصيل ، وأن الموان والخواري من السود والأحباش سلموا من هذا المعص فكتر اشتباههم بهن العناء في الحجارة ثم في غيره من الأقطار الإسلامية .

وطاهر أن هذا التعيين بعيد من الصوت . لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم وبنائهم كما سُمِعوا قبل الإسلام فلا يحدّهم قصير في حمله عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهازة الصوت وقوته إلى طفه من الطلقات ، ولكمهم كانوا يعرضون عن صناعة البناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لا تليق بالممارس المقدم ولا برحى الكريم . وأن الندامة والتسدية بحال السمع أو حمان المطر أدنى إلى عمل النساء منها إلى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحدّون من الرضى الكريم أن يشتغل بعمل غير انقتال أو تسيير القوافل بين رحى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان يسيرون لقوافل بالتجارة صرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الإسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالى والجوارى أو على المحشيين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، وطدا كانوا يرسلون الشعر ويطلبون الوجوه وعندهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أرباب أصحاب النغون من موسيقيين ومصوريين ومحدثين ، وظل يرسل الشعر وصلوات الوحه شائماً بينهم إلى زمن قريب . بعد أن تقبوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز .

فكثرة سعيهم الموالى والجوارى إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في عرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها وهي الغناء والنصيب وما إليه ، فكانوا يسعون بها أقصى مدى الصوت الإنساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر مكانٍ على امتلاء .

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع سدا للآذان لأنه عرف قبل ذلك في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإيل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، وإنما عرفت جهازة صوته في الحرب والسلم وحدا الطريق فاختاره النبي عليه السلام للآذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

فہرست

صفحة

٥	كلمة تصدير
٧	مسألة العنصر
٤٧	العرب والأجناس
٥٣	الرق في الإسلام
٦٧	نشأة بلال
٧٩	إسلام بلال
٩٣	صفات بلال
١٠٣	الأذان
١١٣	المؤذن الأول
١٣٧	تعقيب



رقم الايداع : ١٩٦٤

الترقيم الدولي : ٥ - ٢٣٩ - ٢٨٦ - ٩٧٧ - I.S.B.N